دراسة لمواقف الأحابيش من الإسلام منذ البعثة وحتى فتح مكة

د. علي حسن أحمد حسن شعيب
وزارة الأوقاف المصرية

إن المتصفح لسيرة رسول الله ﷺ منذ أن بعثه الله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وليخرج به الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، يجد أن الناس، أفرادًا وجماعات، قد اختلف موقفهم منه ﷺ ومن دعوته، قبولاً ورفضًا، أو سلمًا وحربًا، ومن بين هؤلاء الذين تربصوا به الدوائر، وسارعوا مع كل ناعق لحربه، بل جمعوا الجموع للقضاء عليه، وعلى دعوته، من سموا في المصادر الإسلامية باسم: "الأحابيش".

هذا المدلول الذي أثار جدلاً بين الباحثين في تحديد هوية هذه الجماعة، فهل كانوا من العرب أم من العجم؟، وهل كانوا أيضًا أحرارًا أم عبيدًا؟، وكذلك الأمر في علاقتهم بقريش؟ هل كانوا حلفاء لها؟ أم عبيدًا تستأجرهم للدفاع عنها، وعن تجارتها؟ ومن ثم كانت مواقفهم العدائية من الإسلام والمسلمين، فلا مناص إذًا من طرح آراء هؤلاء الباحثين، ومناقشتها مناقشة علمية، بعيدًا عن التعصب والهوى، لبيان وجه الحقيقة في تلك القضية.

وقبل أن نتعرض لموضوعات الدراسة، فإني سوف أتحدث بالتفصيل عن التعريف بمصطلح الأحابيش في ضوء المصادر المختلفة الأصلية، والمعاصرة، ثم بيان مواقفهم من الإسلام، وموقف الرسول ﷺ منهم، ونختم الدراسة بالحديث عن أبرز النتائج التي توصلنا إليها.

التعريف بمصطلح الأحابيش:

أولاً: من هم الأحابيش؟

يعد ابن إسحاق (ت ١٥١هـ/ ٧٦٨م) أول من تحدث عن مصطلح الأحابيش - من مؤرخي المسلمين - فقال: "الأحابيش: بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهون بن خزيمة بن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة"(١)، وسار على دربه، البلاذري (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)، وأضاف إلى تلك القائمة في رواية ثانية: "بنو الدئل"، وفي رواية ثالثة: "بنو نفاثة بن عدي"(٢).

ولذلك رجح بعض الباحثين(٣) أن بني نفاثة من الأحابيش بناءً على أن المقصود بالنص الأول: "الدئل بن محلم بن غالب بن عائذة بن ييثغ بن مليح بن الهون"، وأن هذا من إطلاق

---

(١) نقلاً عن ابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص٣٧٣، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥م.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ص٥٢، ١٠٠، تحقيق د. محمد حميد الله، طبع معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ١٩٥٩م.

(٣) د. عبدالله بن حسين الشريف: الأحابيش وموقفهم من الصراع بين قريش والمسلمين، ص ص١٢، ١٣، حوليات مركز البحوث التاريخية، الحولية الأولى، الرسالة الأولى، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

الخاص على العام، ويقوي هذا الترجيح ما ذكره البلاذري نفسه من أن سيد الأحابيش يوم نخلة(٤) كان الحليس بن يزيد الدئلي، بالإضافة إلى أن النبي ﷺ طلب من قريش التبرؤ من حلف بني نفاثة عقب غدرهم بخزاعة، "مما يشير إلى أنهم كانوا في حلف قريش عامة، كما أن مشاركتهم لقريش في حروبها من الشواهد على ذلك".

إلا أن هذا الترجيح فيه نظر، فإذا كنا نسلم بأن الدئل بن محلم من بني الهون، وهم من أعضاء حلف الأحابيش، إلا أنهم لم يكن لهم بطن مستقل عن بني الهون، ولذلك يقول ابن حبيب: في القبائل المشتبهة "الدئل، في كنانة، والدئل بن حنيفة، في بكر بن وائل"(٥)، ولم يرد ذكر للدئل من بني الهون، ولذلك كان بنو الدّئل مع بني ليث في حرب قريش وأحابيشها(٦).

وكذلك الأمر في بني نفاثة لا يمكن التسليم بأنهم من الأحابيش، لما يلي:

أولاً: لأن البلاذري نفسه نسب نفاثة إلى كنانة لا إلى الهون بن خزيمة، فقال: "والأحابيش، وهم:... وبنو نفاثة بن عدي بن

---

(٤) يوم نخلة: من أيام حرب الفجار بين قريش وكنانة كلها وبين هوازن، وإنما هاجها البرّاض بقتله عروة الرّجال، ولم يكن هذا اليوم لواحد منهما على صاحبه؛ لمزيد من التفصيل يمكن مطالعة: البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ص١٠٠، ١٠٢، وابن عبدربه: العقد الفريد، ج٦، ص ص١٠٣، ١٠٩، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

(٥) ابن حبيب: المنمق في أخبار قريش، ص ص٣٩٦، ٣٩٧، تحقيق: خورشيد أحمد فاروق، طبع عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، وابن عبدربه: العقد الفريد، ج٣، ص٣١٥.

(٦) ابن حبيب: المنمق، ص١٢٠.

الديل بن كنانة"(٧)، ومن المعروف أن الأحابيش تحالفوا على سائر بني بكر، وبنو نفاثة بن عدي هم بني الدّئل بن بكر ابن عبد مناة(٨).

ثانيًا: أن البلاذري صحح نسب الحليس إلى كنانة لا إلى بني الهونِ بن خزيمة في الرواية التالية لنسبته إلى بني الدّئل مباشرةً، كما أنه عدّه في بني الحارث بن عبدمناة بن كنانة(٩)، وهي النسبة التي وردت في المصادر التاريخية.

ثالثًا: أما مشاركة نفاثة لقريش في حروبها فلأنهم كانوا حلفاء لحرب بن أمية خاصة(١٠)، دون سائر قريش.

رابعًا: وفيما يتعلق بالتبرؤ من نفاثة، فالواقدي صاحب الرواية - على الرغم من قوله في صدرها: "حدثني الثقة عندي" - يقول في عجزها: "فكل أصحابنا أنكروا هذا الحديث"(١١). ومما يجعلنا نشك في خبر رسالة النبي ﷺ لقريش، ما ذكر عن إعانة قريش لبني نفاثة بالرجال

---

(٧) البلاذري: كتاب جمل من أنساب الأشراف، ج١١ ص١٥٠، تحقيق: د. سهيل زكار وآخر، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.

(٨) الزبيري: نسب قريش، ص٩، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩م، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٢٣٩، تحقيق: د. عبدالسلام محمد هارون، ط٤، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، وابن حجر: فتح الباري، ج٤، ص٥٥٣، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي وآخرين، ط٢، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٩٨٨م.

(٩) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص١٠١، وكتاب جمل من أنساب الأشراف، ج١١، ص١٣٧.

(١٠) ابن حبيب: المنمق، ص٢٦٥، وياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص١٨٤، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.

(١١) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ص٧٨٦، ٧٨٧، تحقيق: د. مارسدن جوسن، ط٣، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٤م.

والسلاح، وقتال بعض أشرافهم متنكرين متنقبين(١٢)، بالإضافة إلى أن أبا سفيان حين قدم على رسول الله ﷺ المدينة يسأله أن يجدد العهد فأبى عليه، وقال له: "وهل أحدثتم من حدث؟ فقال أبو سفيان: لا، فقال النبي ﷺ: فنحن على أمرنا الذي كان بيننا"(١٣). على أنه مما اتفق عليه علماء المسلمين أن أهل العهد والهدنة مع المسلمين إذا حاربوا من هم في ذمة المسلمين وجوارهم، صاروا حربًا لهم بذلك، ولم يبق بينهم وبين المسلمين من عهد(١٤)، وإذا كانت الرواية غير صحيحة فلا تصلح لاستدلال، ويؤكّد ذلك، أن بني بكر - ومنهم نفاثة - كانوا يعدون دخولهم في عقد قريش في الحديبية(١٥) دخولاً في حلف الأحابيش، ولذلك عدوا

---

(١٢) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٢٩٠، وابن سعد: الطبقات، ج٢، ص ص١٩٣، ١٩٤، تحقيق: د. حمزة النشرتي وآخرين، المكتبة القيمة، القاهرة، (د.ت)، والصالحي: سبل الهدى، ج٥، ص٣١٣، تحقيق: إبراهيم الترزي وآخر، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث، القاهرة، ١٩٩٧م.

(١٣) ابن شهاب الزهري: المغازي، ص٨٧، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر العربي، دمشق، ١٩٨١م.

(١٤) د. محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، ص٢٧٠، ط١٦، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(١٥) الحديبية: قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها أصحابه، وهي ليست من الحرم، وتبعد عن المسجد الحرام قرابة (٢٥كم) وتعرف المنطقة حاليًا باسم: "الشميسي"، ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٢٢٩، وسعد بن عبدالله: معجم الأمكنة الوارد ذكرها في صحيح البخاري، ص١٨٠، طبع دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

نصرهم على خزاعة فخرًا لأعضاء الحلف، فقد قال بعض شعرائهم(١٦):

ألا هل أتى قصوى الأحابيش أنّنا
رددنا بني كعب بأفوق ناصل(١٧)
حبسناهم في دارة العبد رافع
وعند بديل محبسًا غير طائل
بدار الذّليل الآخذ الضّيم بعدما
شفينا النّفوس منهم بالمناصل(١٨)

وأخيرًا: فقد نقل قائمة ابن إسحاق أيضًا الخزاعي (ت ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م)(١٩)، والصالحي (ت٩٤٢هـ/ ١٥٣٦م)(٢٠).

أما قائمة ابن سعد (ت٢٣٠هـ/ ٨٤٥ م)، وإن كانت تؤكد ما جاء في قائمة ابن إسحاق، إلا أن فيها توضيحًا لبعض بطون الأحابيش، فقد جاء فيها: "الأحابيش: بنو الحارث بن عبد مناة

---

(١٦) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٣٩٢.

(١٧) بأفوق ناصل: أي ما ظفرت منه بسهم انكسر فوقه وسقط نصله وسهم ناصل ذو نصل جاء بمعنيين متضادّين، ابن منظور: لسان العرب، م٦، ص ص٤٤٤٥، ٤٤٤٦، مادة: (ن ص ل)، تحقيق: عبدالله على الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

(١٨) النّصل: نصل السّهم والسّيف والسّكّين والرّمح والجمع نصول ونصال. والمنصل بضم الصاد وفتحها السّيّف، الرازي: مختار الصحاح، ص٦٦٣، مادة: (ن ص ل)، تحقيق: محمود خاطر، دار الحديث، القاهرة، د.ت.

(١٩) الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية، ص١٩٢، تحقيق: مصطفى عبدالواحد وآخر، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث، القاهرة، ١٩٩٩م.

(٢٠) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، ج٤، ص٣٧٥.

بن كنانة، والمصطلق، واسمه: جذيمة، والحيا: واسمه: عامر ابنا سعد من خزاعة، وعضل، والقارة من ولد الهون بن خزيمة، وعضل هو ابن الديش بن محلم"(٢١)، وسار على منهجه الزبيري (ت ٢٣٦هـ/ ٨٥١م)(٢٢)، وابن حبيب (ت٢٤٥هـ/ ٨٦٠م)، وإن لم يذكر "الحيا" في تلك الرواية(٢٣)، وذكر في صدر حديثه عن يوم الغميصاء، وقتل بني جذيمة، أن"رسول الله ﷺ وجه خالد بن الوليد إلى الأحابيش وهم الهون بن خزيمة، والحيا من خزاعة، وبنو مالك بن كنانة، وهم بأسفل مكة"(٢٤).

وقد تعقب الدكتور عبدالله الشريف هذه الرواية بقوله: "ويذكر أيضًا بنو جذيمة فيمن دعاهم خالد إلى الإسلام خلال بعثه ذاك إلى الأحابيش، مما يشير إلى كون بني عامر ابن عبد مناة بن كنانة ومنهم بنو جذيمة من الأحابيش"، وأن هذه القبائل الكنانية دخلت في حلف الأحابيش عند التوسع والتجدد الذي شهده بعد نشأته الأولى(٢٥).

ويبدو لي أن بني عامر بن عبد مناة بن كنانة، ومنهم بنو جذيمة، لم يدخلوا ضمن حلف الأحابيش، لما أشارت إليه الروايات التاريخية من وجود عداء بين قريش وبني جذيمة، وأنهما استعدا للحرب ثمّ صلح بينهما(٢٦)، وهذا يتعارض مع ما عرف عن قريش من حسن معاملتها لحلفائها.

---

(٢١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٥، ص ص٦٧، ٦٨.

(٢٢) الزبيري: نسب قريش، ص٩.

(٢٣) ابن حبيب: المنمق، ص ص١١٥، ١٧٢.

(٢٤) المصدر السابق، ص ص٢١١، ٢١٢.

(٢٥) د. عبدالله بن حسين الشريف: الأحابيش، ص١٣.

(٢٦) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص ص٤٣١، ٤٣٢.

أما بنو مالك بن كنانة، فإن الروايات تشير إلى وجود حلف بينهم وبين قريش، ولذلك خرج إليهم مسافع بن عبد مناف في غزوة أحد (سنة ٣هـ/ ٦٢٥م)، يحرّضهم ويدعوهم إلى حرب رسول اللّه ﷺ، فقال:

يا مال(٢٧) مال الحسب المقدّم
أنشد ذا القربى وذا التّذمّم
من كان ذا رحم ومن لم يرحم
الحلف وسط البلد المحرّم
عند حطيم الكعبة المعظّم(٢٨)

وقد نقل قائمة ابن سعد أيضًا الزبير بن بكار (ت٢٥٦ هـ/ ٨٧٠م)، وإن لم يذكر "عضل"(٢٩).

أما الفاكهي (ت بعد٢٧٢هـ/ ٨٨٥م) فيقول: "الأحابيش: عضل، والقارة، ودوس، ورعل(٣٠)"(٣١)، بيد أنه لم يكن لدوس ورعل دور في الحوادث التي خاضها حلف الأحابيش مما

---

(٢٧) يا مال: أراد: يا مالك، فحذف الكاف للترخيم، نقلاً عن ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٦١، هامش(٥).

(٢٨) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٦١.

(٢٩) نقلاً عن الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٩٧، تحقيق: لجنة من كبار العلماء والأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

(٣٠) رعل: بطن من بني سليم ينسبون إلى رعل بن عوف بن مالك بن امرئ القيس بن لهيعة بن سليم، ابن قتيبة: المعارف، ص٨٥، تحقيق: د. ثروت عكاشة، ط٦، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، وابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٤٣٨.

(٣١) نقلاً عن الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٨٣.

يشكك في صحة الخبر، وإنما كان لهاتين القبيلتين أحلاف خاصة مع بعض بطون من قريش(٣٢).

في حين يذكر ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) بعض القبائل التي ذكرها ابن إسحاق، فيقول: "الأحابيش حلفاء قريش هم: بنو المصطلق، والحيا بن سعد بن عمرو، وبنو الهون بن خزيمة"(٣٣).

وذهب أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦ هـ/ ٩٦٧م) إلى أن: "الأحابيش من بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة: وهو نفاثة بن الدّيل، وبنو لحيان من خزاعة، والقارة: وهو أثيع بن الهون بن خزيمة، وعضل"(٣٤).

وفى تلك الرواية نظر، وذلك لأن نفاثة بن الدّيل من بني بكر بن عبد مناة(٣٥)، وليس من بني الحارث بن عبد مناة، كما أن بني لحيان من هذيل، وليسوا من خزاعة(٣٦).

على حين نجد أبا الفداء (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) يقول: "ومن بطون كنانة الأحابيش، وكان الحليس بن عمرو رئيس الأحابيش... ومن لم يقف على ذلك إذا سمع ذكر

---

(٣٢) د. عبدالله بن حسين الشريف: الأحابيش، ص ص١٣، ١٤.

(٣٣) ابن قتيبة: المعارف، ص٦١٦.

(٣٤) الأصفهاني: الأغاني، ج٢٢، ص٦٤، تحقيق: عبد علي مهنا وآخر، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

(٣٥) الزبيري: نسب قريش، ص ص٩، ١٤، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٢٣٩.

(٣٦) البخاري: الجامع الصحيح، ج٣، ص١٢٤٦، الحديث رقم٤٠٨٦، مراجعة الشيخ/ محمد القطب وآخر، ط٢، المكتبة العصرية، بيروت، سنة١٩٩٧م، وابن عبدربه: العقد الفريد، ج٣، ص٢٩٢، وابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٤٣٧.

الأحابيش... ظن أنهم من الحبشة، وليس كذلك، بل هم عرب من بني كنانة"(٣٧)، وهو في هذا ينقل عن ابن عبدربه (ت٣٢٨هـ/ ٩٤٠م)، والذي أشار إلى بعض أعضاء حلف الأحابيش لا الكل، فقال ما نصه: "وبنو ضمرة في كنانة الأحابيش... ومن بني كنانة: الأحابيش: مبذول وعوف وأحمر وعون"(٣٨)، هم من بني الحارث بن عبد مناة. كما جاء في بعض نسخ العقد الفريد المطبوعة(٣٩)، وكما أشار الزبيري في سياق نسب بعض من عرف بهم(٤٠).

ومما يرجح كون بني ضمرة من الأحابيش على الرغمٍ من أنهم من بني بكر، ما ذكر في سبب حرب الفجار، فضلاً عن مشاركة بعضهم إلى جانب قريش في حروبها ضد النبي ﷺ، واستعانة قريش ببعضهم في حمل الرسائل، ومشاورتهم، وعرض بعض بطون ضمرة - على الرغم من عهدهم مع النبي ﷺ - على قريش المساعدة في غزوة بدر (سنة ٢هـ/

---

(٣٧) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج١، ص١٢٦، تحقيق د. محمد زينهم وآخرين، ط١، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٩٨م، ونقل عنه، القلقشندى: نهاية الأرب، ج١، ص٧٩، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط٣، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٩١م.

(٣٨) ابن عبدربه: العقد الفريد، ج٣، ص٢٩٣، وكذلك وردت الرواية في طبعة دار الفكر، بيروت، تحقيق: محمد سعيد العريان، ج٣، ص٢٦٠، ولم يأت للرواية ذكر في بعض النسخ، وإن أشارت إلى أن بني ضمرة بن بكر من بطون كنانة، انظر في ذلك: ابن عبدربه: العقد الفريد، ج٣، ص٣٤٠، تحقيق: أحمد أمين وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٤٢م.

(٣٩) ابن عبدربه: العقد الفريد، ج٣، ص٣٤٠، تحقيق: أحمد أمين.

(٤٠) الزبيري: نسب قريش، ص ص١٥، ٣٠١، ٣٢٢، وانظر البلاذري: كتاب جمل من أنساب الأشراف، ج١١، ص١٣٧.

٦٢٤م)(٤١)، بالإضافة إلى أن هذه القبائل كانت تقيم على طرق التجارة والتي كانت قريش تحرص على سلامتها وأمنها(٤٢).

ويتضح لنا مما سبق عدة أمور:

أولاً: أن الاختلافات التي وردت عن بطون الأحابيش في روايات كتّاب السيرة، والأنساب، إنما كانت بسبب اختلافهم في الاستنباط من الروايات التاريخية التي دونها السابقون، والتوسع في ذكر بعض البطون والفروع دون بعضها الآخر، وهذا أمر مقبول بين المؤرخين، وربما يرجع هذا الاختلاف إلى أن الحلف كان قابلاً لدخول قبائل أخرى، وآية ذلك ما ذكر عمر بن شبّة، في سبب تكوين الحلف من تسلّط بني بكر على قريش، فأتى رجل من بني الحارث بن عبد مناة قومه، فقال لهم: "ذلّت قريش لبني بكر فانصروا إخوانكم، فركبوا إلى بني المصطلق من خزاعة، فسمعت بهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة، فاجتمعوا... فتحالفوا، ... ثمّ دخلت فيهم القارّة"(٤٣).

ثانيًا: أن الأحابيش حلفاء قريش بطن منهم، وليسوا من الحبشة كما يتوهمه بعض الباحثين(٤٤).

---

(٤١) الواقدي: المغازي، ج١، ص ص٢٨، ٣٦، وابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص ص٦٠٧، ٦٢١، وابن سعد: الطبقات، ج٤، ص٢٩٩، وابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٢٦٨، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم وآخرين، ط١، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٩٨٨م.

(٤٢) البخاري: الجامع الصحيح، ج٣، ص١٠٩٤، الحديث رقم ٣٨٦١، وابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص ص٢١٠، ٢١٤.

(٤٣) نقلاً عن ابن حجر: فتح الباري، ج٤، ص٥٥٣.

(٤٤) ابن قتيبة: المعارف، ص٦١٦، وأبو الفداء: المختصر، ج١، ص١٢٦، والقلقشندي: نهاية الأرب، ج١، ص٧٩.

ثالثًا: أن قبائل الأحابيش حلفاء قريش هم:

١ - من كنانة: بنو الحارث بن عبد مناة، وكانوا يدعون بني غوى فسماهم رسول الله ﷺ بني الرّشد(٤٥)، وبنو مالك بن كنانة(٤٦)، وبنو ضمرة، ومنهم غفار بطن ضخم(٤٧).

٢ - من بني الهون بن خزيمة: وهم بطن من مضر(٤٨)، عضل، والقارة، بنو يثيع بن الهون(٤٩).

٣ - من خزاعة: وهي من صريح العرب(٥٠) بطنان، يقال لأحدهما: "الحيا" أو "الحياء"، واسمه: عامر، والآخر يقال له: المصطلق، واسمه: جذيمة ابنا سعد بن عمرو بن عامر بن لحي(٥١).

---

(٤٥) ابن حبيب: المحبر، ص٢٤٦، تصحيح: د. إيلزه ليختن شتيتر، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٩٤٢م، والبلاذري: أنساب الأشراف، ج٣، ص٤٩٨، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٢٣٩.

(٤٦) ابن حبيب: المنمق، ص ٢١١.

(٤٧) ابن عبدربه: العقد الفريد، ج ٣، ص٢٩٣، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص١٨٦.

(٤٨) القلقشندى: نهاية الأرب، ج١، ص٧٩.

(٤٩) ابن سعد: الطبقات، ج٥، ص ص٦٧، ٦٨، والزبيري: نسب قريش، ص٩، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٣٤٦، والفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٩٧.

(٥٠) ابن قتيبة: المعارف، ص٦٤، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج٣، ص١١٣ تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخر، ط٢٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩١م.

(٥١) ابن سعد: الطبقات، ج٥، ص ص٦٧، ٦٨، وابن حبيب: المحبر، ص٢٤٦، والبلاذري: أنساب الأشراف، ج٣، ص٤٩٨، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ص٢٣٩، ٢٤٦، والعصامي: سمط النجوم، ج١، ص٢٣٦، تحقيق: عادل أحمد وآخر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

وبعد هذا التخصيص لبطون خزاعة، لا يمكن القول بأن سائر بطون خزاعة(٥٢) انضمت إلى حلف الأحابيش حين جدد على يد عبد مناف بن قصي، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين(٥٣)، ليس لأنه قول يتعارض مع ما جاء في المصادر الأصيلة فحسب، ولكن لأن خزاعة كلها إلا الحياء والمصطلق كانت مع بني مدلج، وبني بكر(٥٤)، بالإضافة إلى أن مجريات الأحداث بين المسلمين وقريش دلت على ذلك، فبينما نجد بني المصطلق تشارك في غزوة أحد، وغزوة الخندق - على رأي من ذهب إلى أن غزوة المريسيع كانت بعدها - والحياء تقف إلى جانب قريش حتى فتح مكة(٥٥)، نجد في المقابل بني كعب بن عمرو ينصحون للنبي ﷺ، وينقلون له الأخبار، وفاءً بعهدهم مع جده عبدالمطلب، ولذلك جاءته خزاعة في صلح الحديبية بهذا العهد، وفي الوقت نفسه كانوا يساندون قريشًا بحكم الجوار والمصالح المشتركة بينهم، شأنهم في ذلك شأن سائر قبائل العرب التي كانت تدين

---

(٥٢) بطون خزاعة: هم بنو قمير، وبنو حليل، وبنو كعب، وبنو عدي، وبنو مليح، وبنو المصطلق، وبنو الحياء، وبنو كليب، وبنو ضاطر، وبنو حرام؛ وبنو غاضرة، وممن ينسبون في خزاعة أخوة خزاعة وهم: أسلم بن أفصى، ومالك بن أفصى، وملكان بن أفصى، ابن قتيبة: المعارف، ص١٠٨، وابن عبدربه: العقد الفريد، ج٣، ص ص٣٣١، ٣٣٣.

(٥٣) د. عبدالله بن حسين الشريف: الأحابيش، ص٢٣.

(٥٤) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٧٥، والعصامي: سمط النجوم، ج١، ص٢٣٦.

(٥٥) الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٨٣٩، ود. عبدالله بن حسين الشريف: الأحابيش، ص٥٣.

لقريش بالتقدم والرياسة(٥٦)، مما يدل على أنهم كانوا خارج الحلف.

ثانيًا: سبب تسميتهم

أما سبب تسميتهم بالأحابيش فيرجع إلى أنهم اجتمعوا تحت جبل حبيش(٥٧)، وقيل: حبش، وقيل: حبشي، وهو من مكة على عشرة أميال(٥٨)، وقيل: بواد يقال له: الأحبش بأسفل مكة(٥٩)، و"تحالفوا بالله إنا ليد على غيرنا ما سجا ليل، ووضح نهار، وما رسا حبشي مكانه"(٦٠)، فسموا الأحابيش باسم الجبل، أو الوادي، وقيل: سموا أحابيش لاجتماعهم، والتجمع في كلام العرب هو التحبيش(٦١). هذا ما ذكرته المصادر الإسلامية الأصيلة.

---

(٥٦) الواقدي: المغازي، ج١، ص ص٣٣٨، ٣٣٩، ج٢، ص ص٤٤٤، ٧٨١، ٧٨٩، وابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص ص١٠٢، ٣٩٥، وابن سعد: الطبقات، ج٢، ص ص١٩٤، ١٩٥، وابن عبدربه: العقد الفريد، ج٣، ص ٣٣٣، وابن حجر: فتح الباري، ج٥، ص٣٩٧، والصالحي: سبل الهدى، ج٤، ص ص٤٤٢، ٥١٤، ج٥، ص ص٣٠٥، ٣١٣.

(٥٧) البكري: معجم ما استعجم، ج١، ص٦١، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، وابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص٣٦، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، ط٣، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢م، والخزاعي: تخريج الدلالات، ص١٩٢.

(٥٨) ابن حبيب: المنمق، ص٢٣١، وابن حجر: فتح الباري، ج٤، ص٥٥٣.

(٥٩) ابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص٣٧٣.

(٦٠) ابن قتيبة: المعارف، ص٦١٦، وياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٢١٠، وابن منظور: لسان العرب، م١، ص٧٥٤، مادة: (ح ب ش).

(٦١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٦٣، وابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج١ ص٣٣٠، تحقيق د. طاهر أحمد الزاوي وآخر، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت)، وابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص٣٦، والفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٩٨.

ثالثًا: آراء المستشرقين

وعلى جانب آخر سلك المستشرقون مسلكًا آخر في التعريف بالأحابيش، إذ اعترضوا على ما كتبه السابقون، واتجهوا إلى نقض ما كتبه هؤلاء الثقات، ولذلك ذهب "فلهاوزن" إلى "أن الأحابيش هم أحلاف قريش السياسيون"(٦٢)، في حين ذهب الأب لامانس إلى القول: بأن الأحابيش كانوا كلهم أو جلهم على أقل تقدير زنوجًا من السودان والحبشة، وأن المحدثين ورواة السيرة تعمدوا القول بأنهم عرب، ليخلصوا قريشَ في الجاهلية وصدر الإسلام من عار الالتجاء إلى عبدان أجانب للدفاع عنهم وعن بلادهم(٦٣)، أما "وات" فقد ذهب إلى أن كلمة الأحابيش حتى وإن "كانت مشتقة من (حبش) فإن هذا لا يعنى أن الأحابيش كانوا زنوجًا، فقد يكونون عربًا من ناحية آبائهم، مع احتمال أن تكون أمهاتهم زنجيات، ومن هنا كانت بشرتهم داكنة"(٦٤)، وقد عقب بعض الباحثين(٦٥) على

---

(٦٢) نقلاً عن لامانس: الأحابيش والنظام العسكري في مكة زمن الهجرة، ص١٨، مجلة المشرق، السنة الرابعة والثلاثون، سنة ١٩٣٦م، ود. عبدالحميد العبادي: صور من التاريخ الإسلامي، ص١٣، مكتبة الآداب، الإسكندرية، ١٩٤٨م.

(٦٣) لامانس: الأحابيش، ص ص١٧، ٢٧، ود. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج١، ص٥٣ هامش (٥)، ط١٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٨٩م، ود. أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص١٤٤، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).

(٦٤) د. مونتجمري وات: محمد في مكة، ص٣٠٣، ترجمة د. عبدالرحمن الشيخ حسين، مراجعة د. أحمد شلبي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.

(٦٥) د. عبدالله بن حسين الشريف: الأحابيش، ص٣١.

هذا الرأي بقوله: "والواقع أن ما ذكره مونتجمري ليس رأيًا خاصًا به، وإنما هو الحقيقة التاريخية التي أجمعت عليها المصادر العربية التي تحدثت عن الأحابيش".

في حين ذهب الدكتور جواد علي - وهو أقل حدة من المستشرقين، ولا يمكن أن يوضع معهم في موقف واحد، وإن تأثر بمنهجهم، ولا سيما أن المستشرقين كانت آراؤهم سلبية في هذه القضية - إلى أن لفظة الأحابيش، ربما تكون قد لحقت بعض كنانة، بسبب اختلاطهم بالحبش الذين سيطروا على ساحل تهامة فترة طويلة من الزمن قبل الإسلام، ويجوز أيضًا أن تكون قد لحقتهم تلك التسمية، لتزوج قسم منهم من نساء حبشيات، حتى ظهرت السمرة على سحنتهم، ولهذا وصفوا بالأحابيش، وفي موضع آخر يقول: "وأنا لا أستبعد أيضًا أن تكون تلك التسمية - الأحابيش - قد غلبت على هؤلاء لأنهم كانوا من الساحل الأفريقي المقابل لجزيرة العرب، جاءوا إليها بالفتوح، والنخاسة، وأقاموا في تهامة إلى مكة، وعاشوا عيشة أعرابية متبدية، وتحالفوا مع القبائل العربية... وتخلقوا بأخلاق عربية، حتى صاروا أعرابًا في كل شيء، وقد لازمتهم التسمية التي تشير إلى أصلهم"(٦٦).

إلا أن مثل هذه الادعاءات التي ذهب إليها هؤلاء الباحثون لا يمكن التسليم بها، لأنها تتعارض معارضة صريحة

---

(٦٦) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص٣٥، ط٢، بغداد، ١٩٩٣م.

وواضحة مع ما ذكرته المصادر الأصيلة بما يصعب معه التوفيق، ويتضح ذلك مما يلي:

أولاً: إذا كان بين كلمتي: "أحابيش" و"أحابش" تجانسًا شديدًا في اللفظ، واتحادًا في المعنى من بعض الوجوه إلا أن أول اللفظين ينفرد بمعان تغاير في أغلب الأحيان مدلول اللفظ الثاني(٦٧)، فقد ذكرت كتب اللغة أن الحبش: جنس من السودان، وهم الأحبش والحبشان... والأحبوش جماعة الحبش، وقيل: هم الجماعة أيًا كانوا لأنهم إذا تجمّعوا اسودّوا(٦٨).

والأحابيش: أحياء من القارة انضمّوا إلى بني ليث في الحرب التي وقعت بينهم وبين قريش قبل الإسلام، سمّوا بذلك لاسودادهم، أي تجمعهم، ولذلك صار التّحبيش في الكلام كالتجميع(٦٩)، والحبشان: الجراد الذي صار كأنه النّمل سوادًا، والتحبّش: التجمّع...، وفي المجلس حباشات... من الناس أي ناس ليسوا من قبيلة واحدة، وهم الحباشة الجماعة، وكذلك الأحبوش، والأحابيش، وتحبّشوا عليه: اجتمعوا، وحبّش قومه تحبيشًا أي جمعهم(٧٠).

---

(٦٧) د. عبدالحميد العبادي: صور من التاريخ، ص١٤.

(٦٨) الخليل بن أحمد: كتاب العين، ج٣، ص٩٨، مادة: (ح ب ش)، تحقيق: إبراهيم السامرائي وآخر، دار ومكتبة الهلال، (د.ت)، وابن منظور: لسان العرب، م١، ص ص٧٥٣، ٧٥٤، مادة: (ح ب ش).

(٦٩) الخليل بن أحمد: كتاب العين، ج٣، ص٩٨، مادة: (ح ب ش)، وابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج١، ص٣٣٠.

(٧٠) ابن منظور: لسان العرب، م١، ص ص٧٥٣، ٧٥٤، مادة: (ح ب ش).

ويتضح مما سبق أن كلمة الأحابيش في اللغة لها ثلاثة معان:

١ - الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة.

٢ - التجمع.

٣ - كثرة العدد، ويكنى عنها بالسواد، لأن العرب تنعت الشيء إذا كثر وتكاثف بسواد اللون(٧١)، ففي الحديث: "قيل: انظر إلى الأفق. فإذا سواد يملأ الأفق، ثمّ قيل لي: انظر هاهنا وهاهنا في آفاق السّماء. فإذا سواد قد ملأ الأفق، قيل: هذه أمّتك"(٧٢)، إذًا فالمراد بالسواد الكثرة، وليس سواد البشرة، كما فهم بعض الباحثين(٧٣).

وهذه المعاني التي ذكرها علماء اللغة لكلمة "الأحابيش" تتفق تمامًا مع ما ذكرته المصادر الأصيلة، التي تحدثت عن تلك الجماعة - كما سبق - ويتضح ذلك أيضًا من مدلول الروايات التاريخية التي تناولتهم بالذكر.

ثانيًا: دل على أن الأحابيش من العرب ما ذكره الرواة: عن أبي سفيان بن حرب في غزوة أحد (سنة٣هـ/٦٢٥م) أنه "استأجر ألفين من الأحابيش ليقاتل بهم رسول الله ﷺ"(٧٤)،

---

(٧١) د. عبدالحميد العبادي: صور من التاريخ، ص١٥.

(٧٢) البخاري: الجامع الصحيح، ج٤، ص ١٨٢٥، الحديث رقم ٥٧٠٥، وابن حجر: فتح الباري، ج١٠، ص١٦٤.

(٧٣) لامانس: الأحابيش، ص٢١، ود. جواد علي: المفصل، ج٤، ص٣٣، ود. مونتجمري وات: محمد في مكة، ص٣٠٣.

(٧٤) السيوطي: لباب النقول، ص١٣٢، تحقيق: قرني أبو عميرة، مكتبة نصير، القاهرة، سنة ١٩٨٣م، وسعيد الأفغاني: أسواق العرب، ص ص١٣٩، ١٤٠، ط٤، مكتبة العروبة، الكويت، ١٩٩٦م.

والمحالفة والإجارة إنما ينصبان على الأحرار لا على العبيد(٧٥). وكذلك ما روى - في الغزوة نفسها - عن صفوان بن أمية، من أنه كلّم أبا عزة الشاعر، وسأله أن "يخرج إلى بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهم حلفاء قريش، فيسألهم النصر..."(٧٦)، ولذلك كانت الألوية يوم خرجوا من مكة - كما جاء في بعض الروايات - ثلاثة ألوية عقدوها في دار النّدوة؛ لواء منها كان "في الأحابيش يحمله رجل منهم"(٧٧)، والعبيد يقاتلون تحت ألوية ساداتهم لا تحت ألوية مستقلة.

ثالثًا: مما يؤكد دقة رواة السيرة، وعلماء الجرح والتعديل، وأمانتهم في النقل، وأنهم لم يتعمدوا تزييف الحقائق - كما زعم لامانس - ما ذكره الرواة من استعانة بعض القرشيين بالأحباش في أخذ ثأرهم، إذ نقلوا عن وحشي قوله: "كنت غلامًا لجبير بن مطعم، وكان عمّه طعيمة بن عديّ، قد أصيب يوم بدر، فلمّا سارت قريش إلى أحد، قال لي جبير: إن قتلت حمزة عمّ محمّد بعمّي فأنت عتيق، قال: فخرجت مع النّاس، وكنت رجلاً حبشيًّا أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلّما أخطئ بها شيئًا..."(٧٨).

وكذلك قولهم في الغزوة نفسها: "فلمّا التقى النّاس كان أوّل من لقيهم أبو عامر، في الأحابيش وعبدان أهل

---

(٧٥) د. عبدالحميد العبادي: صور من التاريخ، ص٢١.

(٧٦) الزبيري: نسب قريش، ص٣٩٧.

(٧٧) الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٠٣.

(٧٨) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٧٢.

مكّة"(٧٩)، وعطف عبدان على ما قبلها هنا عطف نسق يفيد المغايرة، وليس عطف بيان(٨٠) وشرحًا لكلمة الأحابيش كما ذهب لامانس(٨١)، ويؤكد ذلك قول نسطاس - مولى صفوان بن أمية - عن نفسه في غزوة أحد وكان أسلم وحسن إسلامه: "كنت مملوكًا فكنت فيمن خلّف في العسكر ولم يقاتل يومئذ مملوك إلا وحشيّ، وصؤاب غلام بني عبدالدّار"(٨٢).

رابعًا: ومما يؤكد هوية الأحابيش العربية، غضب الحليس بن علقمة، حينما قالت له قريش: في صلح الحديبية (سنة٦هـ/٦٢٨م) "إنما أنت أعرابي لا علم لك"(٨٣)، وذلك لأن "الأعرابي إذا قيل له: يا عربي فرح بذلك وهش له، والعربي إذا قيل له: يا أعرابي غضب له"(٨٤)، فإذا كان الحليس - سيد الأحابيش - حبشيًا، أو سودانيًا، أو زنجيًا، فلماذا غضب؟، ولماذا عملت قريش على استرضائه؟.

---

(٧٩) ابن عبدالبر: الدرر، ص١٥٦، تحقيق د. شوقي ضيف، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سنة ١٩٩٤م، وابن الأثير: الكامل، ج٢، ص ص١٤٩، ١٥٠، دار صادر، بيروت، سنة ١٩٧٩م، وابن كثير: البداية، ج٤، ص١٧، والسمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٨٥ تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤م.

(٨٠) د. عبدالحميد العبادي: صور من التاريخ، ص٢١.

(٨١) لامانس: الأحابيش، ص٢١.

(٨٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٣٠.

(٨٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص٦٢٨، تحقيق: محمد أبو الفضل، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، والسهيلي: الروض الأنف، ج٤، ص٢٦، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (د.ت)، وابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٢٠٢.

(٨٤) ابن منظور: لسان العرب، م٤، ص ٢٨٦٤، مادة: (ع ر ب).

خامسًا: يكفي أن نشير إلى أن لامانس "شديد التعصب ضد الإسلام يفتقر افتقارًا تامًا إلى النزاهة في البحث، والأمانة في نقل النصوص وفهمها، ويعدّ نموذجًا سيئًا جدًا للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين"(٨٥)، وآراء هذا المستشرق لا تساوي حتى الورق الذي كتبت عليه، وإنما نتعرض لها بالذكر حتى لا يغتر بها من هم في بداية مراحل البحث العلمي، وكذلك غير المتخصصين في الدراسات التاريخية، ولا سيما أن آراء لامانس في تلك القضية لم يرض عنها أمثاله من المستشرقين، ولذلك ننقل من كلام المستشرق الدكتور مونتجمري وات قوله: "فقد غالى لامانس - لسوء الحظ - في الاتجاه المناقض لما ذهب إليه فلهوزن، وكانت معالجته للمصادر غير علمية، فقد رفضها، ورضي أن ينساق وراء أفكاره المسبقة، ولم يخضع للمبادئ الموضوعية... والسبب هو أن لامانس يفترض صدق النظرية التي يحاول إثباتها"(٨٦).

سادسًا: أضف إلى ذلك أن قريشًا كانت تربطها بالأحابيش صلات صهر ونسب، فقد زوج عبد مناف بن قصي ابنته ريطة من عامر بن عوف، وكان يقال له: مسك الذنب(٨٧)، وعندما دخل مكة خالد بن الحارث وهو أبو قارظ - من بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة - "وكان جميلاً حسنًا بليغ اللسان شاعرًا، فقالت قريش: حليفنا وعقيدنا وأخونا وناصرنا، ... فكلهم دعاه إلى أن ينزله أو

---

(٨٥) د. عبدالرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص٥٠٣، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م.

(٨٦) د. مونتجمري وات: محمد في مكة، ص ص٢٩٩، ٣٠٠.

(٨٧) الزبيري: نسب قريش، ص١٥، وابن حبيب: المنمق، ص٢٣١.

يزوجه"(٨٨)، وكذلك "حالفت القارة خاصة بني زهرة بن كلاب حلفًا صحيحًا في الجاهلية، وتزوجوا في بني زهرة حيث شاؤوا، وعامة أمهاتهم من بني زهرة"(٨٩)، والإصهار إنما يكون إلى الأحرار الأكفاء لا إلى العبيد، في حين كانت نساء بني المصطلق من كرائم العرب(٩٠)، يضاف إلى ما سبق أن العرب كانوا يقدسون الحرية، ويبغضون العبودية، فكيف ينكحون إليهم وينكحونهم، ويكون ذلك من المناقب التي يمدحهم بها الشعراء؟(٩١). وما جاء في تلك المصادر الأصيلة التي ربما لم يطلع عليها "وات" - وقد كان في استطاعته أن يرجع إليها ولا سيما أنها مطبوعة ومنشورة - يبين لنا بوضوح أن احتماله في كون أمهات الأحابيش زنجيات لا أساس له من الصحة(٩٢)، وأنه لم يذكر الحقيقة التاريخية التي أجمعت عليها المصادر العربية التي تحدثت عن الأحابيش، كما ذهب إلى ذلك الدكتور عبدالله الشريف(٩٣)، وإنما تعمد تزييف تلك الحقيقة وتحريف الواقع.

ومما سبق يتضح لنا أن الأحابيش حلفاء قريش، لم يكونوا من الحبش، أو العجم، وإنما هم بطن من قريش، وفي

---

(٨٨) ابن حبيب: المنمق، ص٢٣٩.

(٨٩) ابن سعد: الطبقات، ج٥، ص٦٨.

(٩٠) الإمام مسلم: صحيح مسلم، ج٢، ص١٠٦١، الحديث رقم ١٤٣٨، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

(٩١) انظر ما جاء في قصيدة حذيفة بن غانم في رثاء عبدالمطلب، ابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص ص١٧٤، ١٧٨.

(٩٢) د. مونتجمري وات: محمد في مكة، ص٣٠٣.

(٩٣) د. عبدالله بن حسين الشريف: الأحابيش، ص٣١.

الحقيقة فإننا بإزاء قبيلة عربية كبيرة، كانت في طور التكوين والنمو عن طريق الأحلاف التي كانت سببًا في تكوين العديد من القبائل العربية، لولا أن الإسلام صهرها في بوتقة الدولة الإسلامية التي أقامها النبي ﷺ، وكذلك فإن الأحابيش لم يكونوا من الرقيق، وإنما كانوا من الأحرار.

ومن هنا يتضح أنه لا مجال لتلك الافتراءات التي يرددها هؤلاء المستشرقون عامدين إلى تغيير الحقائق، وهدم الثوابت، وتزوير الأفكار، والطعن على مؤرخينا العظام. وثمة أمر يجدر ذكره، وهو أن المستشرقين لم يكن غرضهم الطعن في كبار مؤرخي الإسلام، وإنما الطعن على سيرة النبي ﷺ، وتشويه السنة النبوية المشرفة التي احتوت السيرة على جانب كبير منها، عن طريق الطعن في رواتها - ولكن هيهات لهم ذلك - لأن الرواة الذين نقلوا لنا أخباره ﷺ هم الذين نقلوا لنا أخبار الأحابيش، وقد تميزوا بالدقة والأمانة. والتشكيك في هوية الأحابيش ما هو إلا حلقة من حلقات تطويق التراث الإسلامي بهدف القضاء على رسالة الإسلام.

رابعًا: حلف قريش والأحابيش

أما عن تاريخ هذا الحلف، فقد رجح الدكتور عبدالحميد العبادي أنه قام في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي(٩٤)، في حين ذهب الدكتور عبدالله الشريف إلى أن تاريخ الحلف يرجع إلى النصف الأول من القرن الخامس الميلادي(٩٥).

---

(٩٤) د. عبدالحميد العبادي: صور من التاريخ، ص ١٧.

(٩٥) د. عبدالله بن حسين الشريف: الأحابيش، ص١٩.

ويبدو لي أن الرأي الثاني أقرب إلى القبول، وذلك لما يأتي:

أولاً: لأنّ "أوّل حلف كان بمكّة حلف الأحابيش"(٩٦).

ثانيًا: لاختلاف الرواة في اسم من عقد الحلف فقيل: إن الذي قاد بني الحارث، وحالف قصيًا، كان عامر بن عوف، وكان يقال له: مسك الذنب، ويقال: بل حالفه عبد مناف(٩٧)، وقيل: إن اسمه معيط بن عامر، واختلف كذلك فيمن حالفه هل هو عبد مناف بن قصي؟(٩٨)، أم ولده المطلب بن عبد مناف؟ وهو الذي قاد قومه، وأحلافهم من الأحابيش في حربهم ضد بني ليث بن بكر في يوم ذي نكيف(٩٩)، فقال الشاعر:

إن عمرًا وإن عبد مناف   جعلا الحلف بيننا أسبابا(١٠٠)

---

(٩٦) ابن حجر: فتح الباري، ج٤، ص٥٥٣.

(٩٧) ابن حبيب: المنمق، ص٢٣١، وابن حجر: فتح الباري، ج٥، ص٣٩٤.

(٩٨) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٥٢، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٢٤١، ط٢، دار صادر، بيروت، سنة ١٩٩٢م، وابن الأثير: الكامل، ج٢، ص١٨، والفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٨٣، ود. جواد علي: المفصل، ج٤، ص٣١.

(٩٩) ذو نكيف: موضع من ناحية يلملم - ويسمى هذا الجبل حاليًا "السعدية" - من نواحي مكة، ويوم نكيف، وقيل: يوم ذي نكيف وقعة كانت بين قريش وكنانة في هذا الموضع. فهزمت قريش بني كنانة، الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٣١٠، الملحق رقم (٢) تحقيق: رشدي الصالح ملحسن، ط٨، مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة، سنة ١٩٩٦م، وياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٣٠٣.

(١٠٠) الزبيري: نسب قريش، ص١٥، وابن حبيب: المحبر، ص٢٤٦، والبلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص ص ٧٥، ٧٦، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص١٨٨.

ويبدو أن ابتداء الحلف كان في أيام قصي بن كلاب، ثم شهد تجددًا وتوسعًا على يد عبد مناف، وولده المطلب(١٠١).

كذلك يبدو مما ذكره الرواة(١٠٢) أن هذه القبائل تحالفت مع بني الحارث بن عبد مناة أولاً، ثم تحالفوا بعد ذلك مع قريش لما عظم نفوذهم في أيام عبد مناف بن قصي، ليعزوا به، وآية ذلك أمران:

أولهما: ما ذكره الزبيري: "فأما الهون بن خزيمة، فهم عضل، وديش، والقارة، بنو بيثع بن الهون؛ وهم وبطنان من خزاعة يقال لهما: الحيا والمصطلق حلفاء لبني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهم كلهم يقال لهم: الأحابيش، أحابيش قريش، لأن قريشًا حالفت بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة على بكر بن عبد مناة؛ فهم وأحلافهم حلفاء قريش"(١٠٣)، عقد الشماخ بن عامر بن الحارث حلفهم مع قريش، وكان تيم بن عامر بن عوف بن الحارث بن عبد مناة عقد حلفهم مع القارة(١٠٤).

ثانيهما: أن تحالف قريش والأحابيش كان في المسجد الحرام - ولم يكن على جبل حبشي أو في وادي الأحبش كما مر - بأن يقوم رجل من قريش، وآخر من الأحابيش" فيضعان

---

(١٠١) د. عبدالله بن حسين الشريف: الأحابيش، ص ص١٨، ٢١.

(١٠٢) الزبيري: نسب قريش، ص٩، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٩٤، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ١٨٨، و الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٩٧.

(١٠٣) الزبيري: نسب قريش، ص٩.

(١٠٤) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص١٨٨.

أيديهما على الركن، فيحلفان بالله القاتل، وحرمة هذا البيت، والمقام، والركن، والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعًا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وعلى التعاقد، وعلى التعاون على كل من كادهم من الناس جميعًا ما بل بحر صوفة، وما قام حراء وثبير - جبلان بمكة - وما طلعت شمس من مشرقها إلى يوم القيامة"(١٠٥).

خامسًا: أماكن الأحابيش

فإذا ما انتقلنا إلى بعض الجوانب الأخرى المتعلقة بأماكن استقرار الأحابيش ومراعيهم، فنجد أنه كان لبعض أفراد من هذه القبائل ديار في رباع مكة، وحول الكعبة(١٠٦)، وبعضهم كان يقيم بظاهر مكة وضواحيها، مثل بني الحارث بن عبد مناة، وبني مالك بن كنانة، وخزاعة، وبعضهم كان يسكن في أغوار تهامة، مثل عرب خزيمة، وبعض كنانة(١٠٧).

فقد كانت ديار خزاعة في المرتفعات الواقعة في ثلث المسافة بين مكة والمدينة، وأبرز ما في منازلهم "عسفان": وهي قرية جامعة بين مكة والمدينة، على نحو يومين من مكة، وبينها وبين

---

(١٠٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٢٤١، والفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص ٩٨، والعصامي: سمط النجوم، ج١، ص٢٣٦.

(١٠٦) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص ص ٢٣٤، ٢٤٦، ٢٥٤، والفاكهي: أخبار مكة، ج٣، ص ص٢٧٣، ٢٧٤، ٢٩١، ٣١٣، ٣١٦، ٣١٨، ٣٤٨، تحقيق: عبدالملك بن عبدالله، ط١، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٩٨٦م.

(١٠٧) ابن حبيب: المحبر، ص١٧٨، ود. عبدالحميد العبادي: صور من التاريخ، ص١٣، ود. صالح العلي: الحجاز، ص ص١٨٧، ١٨٨، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٠م.

البحر عشرة أميال، وهي حد تهامة، وهي من منابر الفرع، كثيرة الآبار والحياض، وهي لبني المصطلق من خزاعة(١٠٨)، ومن ديار خزاعة "قديد": وهي قرية جامعة بين مكة والمدينة، وبها آبار كثيرة العدد، من أشهرها "المريسيع": وهو لبني المصطلق من خزاعة، وكذلك لهم ماء يسمى "شهد"، ومن ديارهم موضع يقال له: "راحة فروع": وهو لبني المصطلق من خزاعة(١٠٩).

أما كنانة فكانت ديار بعضهم في منطقة تهامة، وهي تشمل الصحارى الممتدة من أقصى جنوب الجزيرة العربية إلى أطرافها الشمالية المحصورة بين ما انحدر من جبال السروات وبين البحر الأحمر، فقد كانت معظم الوديان التي تجرى من مرتفعات السراة إلى البحر أعلاه لهذيل، وأسفلها لكنانة(١١٠)، وكان بالكديد - وهو واد به أحساء كثير، قلّما يفارقه ماء عذب - خيام أعراب من بني كنانة(١١١).

---

(١٠٨) البكري: معجم ما استعجم، ج٣، ص٢٠٤، والسمهودي: وفاء الوفا، ج٤، ص١٢٦٦، والحميري: الروض المعطار، ص٤٢١، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، سنة١٩٨٠م، ود. صالح العلي: الحجاز، ص ص١٨٩، ٢٦٤.

(١٠٩) الحربي: المناسك وأماكن طرق الحج، ص ص٤٥٩، ٤٦٠، تحقيق: حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، سنة ١٣٨٩هـ، البكري: معجم ما استعجم، ج٣، ص ص٦٠، ٢٩٩، وياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص ص ١٢، ٣٧٥، ج٥، ص١١٨، والسمهودي: وفاء الوفا، ج٤، ص١٢٨٧، ١٣٠٦، والحميري: الروض المعطار، ص٤٢١، و د. صالح العلي: الحجاز، ص٢٦٧.

(١١٠) الطبري: تاريخ الرسل، ج٢ ص٥٠١، ود. صالح العلي: الحجاز، ص١٨٧، وسعد بن عبدالله: معجم الأمكنة، ص١١٢.

(١١١) الحربي: المناسك، ص٥٢٠.

ومن بني كنانة ضمرة، ومن منازلهم "ينبع": وهي بين مكة والمدينة، وهي قرية غنّاء، فيها عيون غزيرة، وبها منبر، بالإضافة إلى"ودّان"(١١٢): وهي قرية من أمهات القرى، و"غيقة"(١١٣): وتقع بين مكة والمدينة، وهي لبني غفار من ضمرة، ومن ديارهم "البزواء": وهي أرض بيضاء، مرتفعة من الساحل، بين الجار(١١٤)، وودّان، ومن ديارهم "ركبة" كانوا يجلسون إليها في الصيف، ويغورون إلى تهامة في الشتاء، بذات نكيف، وكذلك "المرود": وهو موضع بين الجحفة، وودان، ومن مياههم "البرود" و"الخرّار" و"كليّة"(١١٥)، ومن ديار غفار أضاءة بني غفار(١١٦): وهو موضع قريب من مكة فوق

---

(١١٢) ودّان: اندثر هذا الموضع حاليًا، وتوجد آثاره على نعف حرّة الأبواء التي لا تزال معروفة، وتقع شرقي بلدة مستورة الواقعة على الطريق بين مكة والمدينة، سعد بن عبدالله: معجم الأمكنة، ص ص٤٤٦، ٤٤٧.

(١١٣) غيقة: تقع على يسار السقيا بينها وبين الفرع، وهي مكان أسفل العرج سهل واسع يحف به من الجنوب الشرقي جبل (صبح) ثافل الأكبر، ومن الشمال الشرقي جبل فعرى، وترى منه غربًا جبل كراش، ، سعد بن عبدالله: معجم الأمكنة، ص٣٤٣.

(١١٤) الجار: قرية كبيرة بها قصور كثيرة على شاطئ بحر القلزم - الأحمر حاليًا - ترفأ إليه السفن من أرض الحبشة، ومصر، والبحرين، وقد يسمى ساحل البحر كله من "جدة" إلى قرب مدينة "القلزم" - السويس - "الجار"، البكري: معجم ما استعجم، ج٢، ص٥، وياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص ص٩٢، ٩٣.

(١١٥) البكري: معجم ما استعجم، ج١ ص ص٢٢٧، ٢٢٨، ج٢، ص ص١٢١، ٢٦٠، ج٣، ص ص٢٦٢، ٢٦٣، ج٤، ص ص ١٨٦، ٢٠٥، ٢٢٨، وياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٣٥٠، ج٤، ص٢٢٢، ج٥، ص ص١١٢، ٣٦٥، ٤٥٠، وسعد بن عبدالله: معجم الأمكنة، ص ص٣٤٢، ٣٤٣.

(١١٦) أضاءة بني غفار: تقع بعد التنعيم بنحو (٥ كم)، وأرضها اليوم بلدان مزروعة، تعليق: عبدالملك بن عبدالله في أخبار مكة: للفاكهي، ج٥، ص٥٤، هامش (١).

سرف(١١٧)، وكذلك "شدخ"، ولهم "شعبة" وهى تتصل بغيقة(١١٨).

وكان بعض الأحابيش من بني الهون بن خزيمة، والحيا من خزاعة، وبني مالك بن كنانة، يقيمون بأسفل مكة، وكانت القارة تنزل بأسفل تهامة، ومما يلي يلملم، ويلي اليمن(١١٩).

سادساً: عقيدة الأحابيش

أما عن عقيدة الأحابيش، فقد ذهب بعض الباحثين(١٢٠) إلى القول: بأن "الأحابيش لم يكونوا على دين مكة من عبادة الأصنام، بل كانوا مؤلهة يدينون بوجود إله، وقد يشير الرسول ﷺ بذلك(١٢١) إلى أنهم كانوا نصارى، أخذوا نصرانيتهم من الحبش، ولذلك كانوا من المؤلهة بالنسبة لقريش". إلا أن مثل هذا الادعاء لا يمكن التسليم به لما يلي:

أولاً: أن جل مشركي مكة كانوا يدينون بوجود الله، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾(١٢٢) ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ**

---

(١١٧) سرف: موضع على طريق الحج من المدينة إلى مكة بين وادي فاطمة وبين التنعيم قريب من مكة، سعد بن عبدالله: معجم الأمكنة، ص٢٧٧.

(١١٨) ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٣٢٨.

(١١٩) ابن حبيب: المنمق، ص ص١١٣، ٢١١، ٢١٢.

(١٢٠) د. جواد علي: المفصل، ج٤، ص٣١.

(١٢١) يشير إلى قول النبي ﷺ عندما أرسلت إليه قريش الحليس بن علقمة "إنّ هذا من قوم يتألهون"، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٥٤، والطبري: تاريخ الرسل، ج ٢ ص٦٢٨، والصالحي: سبل الهدى، ج٥، ص ٥٨.

(١٢٢) سورة الزمر: الآية ٣٨.

لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(١٢٣)، بل إنهم ما عبدوا أصنامهم إلا لتقربهم إلى الله عز وجل – بزعمهم – وذلك قوله جل شأنه: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ**﴾(١٢٤).

ثانيًا: أن التأله في اللغة يعنى: التعبد والتنسك، والنسك: هو العبادة والطاعة وكل ما تقرب به إلى الله تعالى(١٢٥)، ولذلك جاء في بعض الروايات قوله ﷺ: "من قوم يعظمون البدن"(١٢٦).

ثالثًا: أن العرب كانوا ينقسمون إلى قسمين: الأول: كانوا لا يرون للحرم حرمة، ولا للشهر الحرام قدرًا، وأما الثاني: فقد كانوا يدينون له بالحرمة والتعظيم(١٢٧)، وقد كان الأحابيش من الفريق الثاني، أضف إلى ذلك أن الأحابيش كانوا من أحماس العرب(١٢٨).

رابعًا: أن المصادر لم تذكر قبائل الأحابيش ضمن من تنصّر من قبائل العرب(١٢٩) في الجاهلية، وإنما ذكرت أنهم كانوا مثل

---

(١٢٣) سورة الزخرف: الآية ٨٧.

(١٢٤) سورة الزمر: الآية ٣.

(١٢٥) ابن منظور: لسان العرب، م١، ص١١٥، مادة: (أ ل هـ)، م٦، ص٤٤١٢، مادة: (ن س ك).

(١٢٦) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج٣، ص ٢٩٣، والصالحي: سبل الهدى، ج٥، ص٧٥.

(١٢٧) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١، ص ص٢٧٠، ٢٧١، وسعيد الأفغاني: أسواق العرب، ص١٥١.

(١٢٨) ابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص ص١٩٩، ٢٠٠، وابن حبيب: المحبر، ص١٧٨.

(١٢٩) ابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص ص٢٢١، ٢٣٢، وابن قتيبة: المعارف، ص ص٥٨، ٦٢، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٢٥٧.

قريش يعظمون إسافًا ونائلة، وهما من أصنام أهل مكة، فضلاً عن أنهم كانت لهم في أحيائهم "أشياء لا تفارقهم، يسألونها ويجابون منها" مثل "ذو الكفين" الذي كان لخزاعة(١٣٠)، بالإضافة إلى أن خزاعة كانت تعظم "مناة" عند المشلّل(١٣١) بقديد، ويهلّون منها للحج إلى الكعبة، وكان لكنانة "العزى" بنخلة(١٣٢).

ومن ذلك يتضح أن الأحابيش لم يكونوا من النصارى، وإنما كانوا على الوثنية دين قريش، ومن ثم فلا توجد علاقة بينهم وبين الأحباش. ومن خلال العرض السابق يتضح أن الروايات الواردة عن الأحابيش تفيد بأنهم جماعة قائمة بذاتها، مستقلة في إدارة شئونها، يدير أمورها رؤساء منهم، يعرف أحدهم بلقب: "سيد الأحابيش"(١٣٣)، وقد ذكرت لنا المصادر بعض أسمائهم، وهم: ابن الدّغنة(١٣٤) سيد

---

(١٣٠) ابن حبيب: المحبر، ص ٣١٨.

(١٣١) المشلّل (بضم أوله، وفتح ثانيه، وفتح اللام وتشديدها): ثنية مشرفة على قديد، والمشلّل ما زال معروفًا باسمه، وهو غير بعيد من قديد، ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص١٣٦، وسعد بن عبدالله: معجم الأمكنة، ص٤٠٨.

(١٣٢) الصابوني: مختصر تفسير ابن كثير، ج٣، ص ص٤٠٠، ٤٠١، دار التراث، القاهرة، ١٩٨٧م.

(١٣٣) د. جواد علي: المفصل، ج٤، ص٣٤.

(١٣٤) ابن الدّغنة: اختلف في اسمه، فقيل هو: الحارث بن يزيد، وقيل: اسمه مالك، سيد القارة، ونسبه ابن إسحاق إلى بني بكر بن عبد مناة، والأرجح نسبته إلى القارة لا إلى بني بكر، فقد ورد في الصحيح، وليس هناك ما يدل على إسلامه، ابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص٣٧٣، وابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٢٧٤، والصالحي: سبل الهدى، ج٢، ص٥٤١، ود. جواد علي: المفصل، ج٤، ص٣٣.

القارة(١٣٥)، والحليس بن علقمة - وهو أشهر من حملوا اللقب - سيد بني الحارث(١٣٦)، والحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق(١٣٧).

كذلك تميز الأحابيش بالقوة والشجاعة، والمهارة في الرمي، حتى صار ذلك مضربًا للمثل، فقيل عن بعضهم: "قد أنصف القارة من رماها"، وكان يقال: للقارة أيضًا رماة الحدق"(١٣٨)، من أجل ذلك كانت قريش تنزلهم منها منزلة الحليف من الحليف، والند من الند، تسمع كلامهم، وترهب جانبهم(١٣٩).

موقف الأحابيش من الإسلام والرسول ﷺ حتى فتح مكة:

أولاً: موقف الأحابيش من الإسلام والمسلمين

وأما عن موقف الأحابيش من الإسلام، فقد تجرد بعضهم من العصبية والهوى، واعتنق الإسلام، وكان من السابقين مثل

---

(١٣٥) ابن شهاب: المغازي، ص٩٧، والبخاري: الجامع الصحيح، ج٢، ص٦٨٠، الحديث رقم ٢٢٩٧، وابن حجر: فتح الباري، ج٤ ص ٥٥٥، والطهطاوي: نهاية الإيجاز، ج١، ص١١٤، تحقيق: عبدالرحمن حسن محمود وآخر، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٨٢م.

(١٣٦) الأصفهاني: الأغاني، ج٢٢، ص٦٣، وابن عبدربه: العقد الفريد، ج٣، ص٢٩٣، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص١٨٨.

(١٣٧) ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٨٧، وابن عبدالبر: الدرر، ص٢٠٠، والكتبي: عيون التواريخ، ج١، ص٢٢٨، تحقيق: حسام الدين القدسي، طبع مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٠م.

(١٣٨) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٧٦، والسهيلى: الروض الأنف، ج١، ص٢٩٢.

(١٣٩) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٣١٢، وابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٢٠٢، ود. عبدالحميد العبادي: صور من التاريخ، ص١٧.

مسعود بن ربيعة القاري الذي أسلم قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم(١٤٠).

كما أسلم جندب بن جنادة المكنى بأبي ذرّ الغفاريّ، فكان يقال: أسلم بعد أربعة، وكان خامسًا، وبعثه رسول الله ﷺ إلى قومه(١٤١) "فأسلم نصفهم... وقال نصفهم إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا. فقدم رسول اللّه ﷺ المدينة، فأسلم نصفهم الباقي، وجاءت أسلم فقالوا: يا رسول اللّه إخوتنا نسلم على الذي أسلموا عليه. فأسلموا فقال رسول اللّه ﷺ: "غفار غفر اللّه لها وأسلم سالمها اللّه"(١٤٢).

وكان آبي اللّحم الغفاريّ، من قدماء الصحابة وكبارهم(١٤٣)، كما أسلم أبو رهم الغفاري، بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة وشهد معه غزوة أحد(١٤٤).

وأما جعال بن سراقة الضّمريّ، فقد أسلم قديمًا، وشهد مع رسول الله ﷺ أحدًا(١٤٥)، بينما أسلم عمرو بن أميّة

---

(١٤٠) ابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص٢٥٥، وابن عبدالبر: الدرر، ص٤١، والصالحي: سبل الهدى، ج٢، ص٤١٣.

(١٤١) البخاري: الجامع الصحيح، ج٣، ص١٠٩٤، الحديث رقم ٣٨٦١، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٢٥٢، وابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص ص٢١٠، ٢١١.

(١٤٢) ابن سعد: الطبقات، ج٤، ص ص٢٦٦، ٢٦٧، والإمام مسلم: صحيح مسلم، ج٤، ص١٩١٩، الحديث رقم٢٤٧٣.

(١٤٣) ابن عبدالبر: الاستيعاب، ج٣، ص٩٤٣، تحقيق: محمد علي البجاوي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.

(١٤٤) ابن سعد: الطبقات، ج٤، ص٢٩٤.

(١٤٥) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٩٦.

الضّمريّ، حين انصرف المشركون عن أحد، وكان رجلاً شجاعًا له إقدام(١٤٦).

وكذلك أسلمت أمّ رومان، بمكة قديمًا، وبايعت، وهاجرت إلى المدينة مع أهل رسول الله ﷺ وولده، وأهل أبي بكر حين قدم بهم في الهجرة(١٤٧)، كما أسلمت أميمة بنت خلف من خزاعة(١٤٨)، وهذه النماذج غيض من فيض، وقليل من كثير ممن شرفوا بصحبة النبي ﷺ من قبائل الأحابيش.

وهؤلاء إن كان موقفهم إيجابيًا من الإسلام، فإن هناك من كان موقفهم معاديًا للنبي الكريم ولدينه ﷺ، فشاركوا في إيذاء المستضعفين من المسلمين، كما فعلت أمّ أنمار الخزاعية، مع سيدنا خبّاب بن الأرتّ(١٤٩)، وربما كانت هذه حالة شاذة، إذ لم تذكر المصادر التي رجعت إليها نماذج أخرى.

يضاف إلى ذلك أن بعض الأحابيش قام بالدفاع عن بعض المسلمين عندما جهر رسول الله ﷺ بالدعوة يتضح ذلك من خلال ما ذكره الرواة(١٥٠) عن سيدنا أبي بكر الصديق حين ضاقت عليه مكة، وأصابه فيها الأذى، ورأى تظاهر قريش على رسول الله ﷺ فاستأذنه في الهجرة إلى الحبشة، فأذن

---

(١٤٦) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٩٩.

(١٤٧) المصدر نفسه، ج٨، ص٣١٩.

(١٤٨) ابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص٢٥٩.

(١٤٩) الصالحي: سبل الهدى، ج٢، ص٤٧٩.

(١٥٠) ابن شهاب: المغازي، ص٩٧، وابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص٣٧٣، والبخاري: الجامع الصحيح، ج٢، ص٦٨٠، الحديث رقم ٢٢٩٧، والنص له، والسهيلي: الروض الأنف، ج٢، ص١٢١، وابن حجر: فتح الباري، ج٤، ص ص٥٥٥، ٥٥٦، والصالحي: سبل الهدى، ج٢، ص٥٣٩.

له ﷺ، فخرج "أبو بكر مهاجرًا قبل الحبشة، حتّى إذا بلغ برك الغماد⁽¹⁵¹⁾ لقيه ابن الدّغنة - وهو سيّد القارة - فقال: أين تريد يا أبا بكر، فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأنا أريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربّى. قال ابن الدّغنة: إنّ مثلك لا يخرُج ولا يخرَج، فإنّك تكسب المعدوم، وتصل الرّحم، وتحمل الكلّ، وتقرى الضّيف، وتعين على نوائب الحقّ، وأنا لك جار فارجع فاعبد ربّك ببلادك".

فرجع أبو بكر معه، فلما دخلا مكة، طاف ابن الدّغنة في أشراف قريش قائلاً: "إني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرض له أحد إلا بخير"⁽¹⁵²⁾، "فأنفذت قريش جوار ابن الدّغنة وآمنوا أبا بكر، وقالوا لابن الدّغنة: مر أبا بكر فليعبد ربّه في داره، فليصلّ وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنّا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا. قال ذلك ابن الدّغنة لأبي بكر، فطفق أبو بكر يعبد ربّه في داره، ولا يستعلن بالصّلاة ولا القراءة في غير داره".

فلبث أبو بكر على تلك الحالة حتى ابتنى مسجدًا بفناء داره، فكان يصلي فيه، وكان رجلاً رقيقًا حسن الصوت، إذا

---

(١٥١) برك الغماد: (بكسر الغين المعجمة، وقيل: بالضم، والكسر أشهر)، وهو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، ويعرف الموضع حاليًا باسم "البرك" وهو واد يقع وراء وادي حلى مما يلي الجنوب، ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٣٩٩، وسعد بن عبدالله: معجم الأمكنة، ص٧٠.

(١٥٢) ابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص٣٧٣، والسهيلي: الروض الأنف، ج٢، ص١٢٢، والنويري: نهاية الأرب، ج١٦، ص٢٧٦، طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، (د.ت)، والصالحي: سبل الهدى، ج٢، ص٥٣٩.

قرأ القرآن استبكى، فيجتمع عليه نساء المشركين، وأبناؤهم، وعبيدهم، يعجبون من هيئته، فأفزع ذلك أشراف قريش، "فأرسلوا إلى ابن الدّغنة فقدم عليهم، فقالوا له: إنّا كنّا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربّه في داره، وإنّه جاوز ذلك، فابتنى مسجدًا بفناء داره، وأعلن الصّلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فأته فإن أحبّ أن يقتصر على أن يعبد ربّه في داره فعل، وإن أبى إلاّ أن يعلن ذلك فسله أن يردّ إليك ذمّتك، فإنّا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرّين لأبي بكر الاستعلان، فأتى ابن الدّغنة أبا بكر، فقال: قد علمت الّذي عقدت لك عليه، فإمّا أن تقتصر على ذلك وإمّا أن تردّ إليّ ذمّتي، فإنّي لا أحبّ أن تسمع العرب أنّي أخفرت في رجل عقدت له. قال أبو بكر: إني أردّ إليك جوارك، وأرضى بجوار اللّه ورسول اللّه ﷺ"(١٥٣)، فقام ابن الدّغنة فقال: "يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد رد عليّ جِواري، فشأنكم بصاحبكم"(١٥٤)، فعادوا إليه بالإيذاء(١٥٥).

وهذا يدل على أنه كان لكل قبيلة من الأحابيش رئيس يتولى شئونهم، ويدير أمورهم، وأنه كان مسموع الكلمة، مرهوب الجانب لدى قريش، بالإضافة إلى أن موقف الأحابيش من الإسلام لم يختلف كثيرًا عن موقف سائر

---

(١٥٣) البخاري: الجامع الصحيح، ج٢، ص٦٨٠، الحديث رقم ٢٢٩٧.

(١٥٤) السهيلي: الروض الأنف، ج٢، ص١٢٢، والصالحي: سبل الهدى، ج٣، ص٥٤٠.

(١٥٥) ابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص٣٧٤، وابن كثير: البداية، ج٣، ص٩٣، وابن حجر: فتح الباري، ج٤، ص٥٥٦، والصالحي: سبل الهدى، ج٢، ص٥٣٩.

قريش، لما كان بينهم من علاقات سياسية (التحالفات) وتجارية، فلا يمكن لهم أن يخسروا تلك العلاقات بسبب هذا الدين الجديد، الذي فرق جماعتهم، وسفه أحلامهم، وعاب آلهتهم ودينهم، وكفر من مضى من آبائهم.

ومن أجل تلك المصالح نجد أن بني كنانة حالفت قريشًا "على بني هاشم وبني عبدالمطّلب أو بني المطّلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتّى يسلموا إليهم النبي ﷺ"(١٥٦)، وفي رواية "أن لا يبايعوهم ولا يؤووهم"(١٥٧)، ولا يوارثوهم(١٥٨)، وذلك في المقاطعة الظالمة التي أرادت بها قريش الضغط على بني هاشم، وبني المطلب، بالإضافة إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، بعد أن فشلت سياسية التعذيب والاضطهاد في ردّهم عن دينهم وعقيدتهم إلى عبادة الأوثان. والمقصود بكنانة حلفاء قريش من بني الحارث، وبني مالك بن كنانة، وبني ضمرة، وبني غفار، أعضاء حلف الأحابيش، وليس سائر بطون كنانة، فقد كانت بكر الكنانية وعلى رأسها ليث والديل على عداء مع قريش(١٥٩)، ولذلك لا نجد لقبائل

---

(١٥٦) البخاري: الجامع الصحيح، ج١، ص٤٧٤، الحديث رقم ١٥٩٠، والإمام مسلم: صحيح مسلم، ج٢، ص٣٨٩، الحديث رقم ٣٤٤، باب استحباب النزول بالمحصب يوم النفر والصلاة به.

(١٥٧) البخاري: الجامع الصحيح، ج٢، ص٩٤٠، الحديث رقم ٣٠٥٨، وابن حجر: فتح الباري، ج٣، ص٥٢٩.

(١٥٨) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص١٦٢.

(١٥٩) الواقدي: المغازي، ج١، ص ص٣٨، ٣٩، وابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص ص٦١١، ٦١٢، والصالحي: سبل الهدي، ج٤، ص٣٦، ود. عبدالله بن حسين الشريف: الأحابيش، ص ص٤٣، ٤٤.

الأحابيش ذكرًا بين تلك القبائل التي عرض النبي ﷺ نفسه عليها ليحملوه إلى ديارهم حتى يبلغ رسالة ربه(١٦٠)، وربما يرجع ذلك إلى وفائهم بحلف قريش، وقرب ديار بعضهم من مكة(١٦١)، بالإضافة إلى أن تلك القبائل كانت تفتقر إلى وحدة النسب والدار مع وقوعهم في دائرة النفوذ القرشي(١٦٢)، مما يجعلها غير قادرة على نصرة الدين من جميع جوانبه، والقيام بأمر الدعوة الإسلامية.

وعلى كل حال فقد كان الأحابيش الأقوياء من أبرز حلفاء قريش، الذين استخدمتهم في حراسة تجارتها، وفي حروبها التي خاضتها ضد النبي ﷺ(١٦٣)، لدرجة أن بعض الباحثين(١٦٤) قال: "إن قريشًا حين خرجت بمفردها في موقعة بدر - في السنة الثانية من الهجرة - منيت بهزيمة شديدة"، وذلك لأن "زعماءهم من أرباب المصارف اكتفوا ببعض الرجال من الجيش خرجوا يتقاذفون بالحراب من أولئك الأحابيش النظاميين"، والذين "كان عددهم يزداد سنة

---

(١٦٠) ابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص ص٤٢٢، وما بعدها، ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٣٠١، والنويري: نهاية الأرب، ج١٦، ص ص٣٠٢، ٣٠٣.

(١٦١) ابن حبيب: المحبر، ص١٧٨، والبخاري: الجامع الصحيح، ج١، ص٤٧٤، الحديث رقم ١٥٩٠، ابن حجر: فتح الباري، ج٣، ص٥٢٩، ود. صالح العلي: الحجاز، ص ص١٨٧، ١٨٨.

(١٦٢) د. عبدالله بن حسين الشريف: الأحابيش، ص٤٤.

(١٦٣) د. عبدالحميد العبادي: صور من التاريخ، ص١٣، ود. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج١، ص٥٣ هامش (٥)، ود. سهيل زكار: المغازي، لابن شهاب، ص٥٠ هامش(٧).

(١٦٤) د. أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص١٤٤.

عن سنة حتى تألف منهم جيش منظم كان يقوم بنفقاته تجار مكة"(١٦٥).

ويبدو لي أن هذه الآراء قد جانبها الصواب وذلك لما يلي:

أولاً: لأن أهل مكة لم يكونوا بأقل قوة ولا بأساً من الأحابيش، فعندما مر جيشهم، وهو في طريقه إلى بدر على بنى غفار - وهم من أعضاء حلف الأحابيش - أرسل إليهم بعض أشرافهم بهدايا من الجزر مع ولده، ورسالة جاء فيها "إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا... فأرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتك رحم قد قضيت الذي عليك، فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد ﷺ فما لأحد بالله من طاقة"(١٦٦)، وقد صدقوا في ردهم، ويبدو أن سياسة قريش في تلك الغزوة كانت تعتمد على قوتها فقط، ولذلك رأينا بعض أشرافهم - ممن كرهوا الخروج - يصرفون حلفاءهم عن الخروج إلى بدر بقولهم: "إن كان لك مال فأحببت أن تخرج فافعل وإلاّ فأقم"(١٦٧)، وعلى الرغم من ذلك شارك معهم بعض الأحابيش(١٦٨).

---

(١٦٥) لامانس: الأحابيش، ص ص٢٠، ٢١، بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، ص١٧، مطبعة بيت المقدس، القدس، د.ت.

(١٦٦) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٦٢١، وابن كثير: البداية، ج٣، ص٢٦٨.

(١٦٧) الواقدي: المغازي، ج١، ص٣٧.

(١٦٨) ابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص٧١٥، وابن سعد: الطبقات، ج٤، ص٢٩٩، البلاذري: كتاب جمل من أنساب الأشراف، ج١١، ص١٢١.

ثانيًا: أن الأحابيش حاربوا مع قريش في غزوة أحد (سنة ٣هـ/ ٦٢٥م)، فكانت الدائرة عليهم في الجولة الأولى من المعركة، ولم يحققوا نصرًا كاملاً في الجولة الثانية، وأتت قريش في غزوة الخندق (سنة ٥هـ/ ٦٢٧م) بجنود لا قبل للمسلمين بها - عشرة آلاف منهم الأحابيش(١٦٩) -، فماذا كانت النتيجة؟ ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾(١٧٠).

ثالثًا: أن الأحابيش وإن أسهموا في حماية قوافل قريش التجارية إلا أنهم لم يمثلوا النسبة الكبرى بين أعداد الحرس، ولم يتألف منهم جيش منظم يتولى حماية تجارة أهل مكة، ويؤكد ذلك ما ذكره الرواة: من أن حراس بعض القوافل كانوا كلهم من قريش، أو من أهل مكة(١٧١)، فضلاً عن قلة عددهم(١٧٢) في بعض القوافل.

وهذا لا يعني أنهم لم "يكونوا ذوي أهمية كبيرة في المعارك المذكورة - أحد والخندق - رغم أن عددهم قد يكون أضاف

---

(١٦٩) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص ص٢١٩، ٢٢٠، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٥٧٠، والسمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٣٠١.

(١٧٠) سورة الأحزاب: الآية ٢٥.

(١٧١) ابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص ص٥٩٥، ٦٠٦، وابن خياط: تاريخ خليفة، ص٦٢، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، ط٢، دار طيبة، الرياض، سنة ١٩٨٥م، وابن الجوزي: المنتظم، ج٣، ص٨٩، تحقيق: د. محمد عبدالقادر وآخرين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

(١٧٢) ابن هشام: السيرة النبوية، م١، ص٦٠٣، وابن عبدالبر: الدرر، ص١٠٨، وابن الجوزي: المنتظم، ج٣، ص ص٩١، ٩٧، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج٣، ص١٦٨.

شيئًا للصعوبات التي واجهها المسلمون"، كما ذهب إلى ذلك "وات"(١٧٣)، كما سنبين في هذه الدراسة.

وسواء كان الصواب فيما ذهبت إليه أم في غيره، فإن أهل مكة لم يتوقعوا - كغيرهم من المشركين - أن يُهزم جيشهم، ويُقتل ويُؤسر أشرافهم في بدر (سنة ٢هـ/ ٦٢٤م)، ولذا كان وقع الخبر عليهم شديدًا، فعمدوا إلى العديد من الإجراءات حتى لا يظهر المسلمون الشماتة بهم، ويعرفوا مدى حزنهم ومأساتهم(١٧٤).

ومن هذه الإجراءات التي اتخذها المكيون، أن أشراف مكة أخذوا في الاستعداد للانتقام، وأخذ الثأر لمن قتل منهم في بدر، فخصصوا أجزاءً من أرباح القافلة التي نجت من المسلمين - وكانت سبب غزوة بدر - لحرب النبي ﷺ(١٧٥)، كما خرج جماعة من أشراف قريش، وشعرائهم في قبائل العرب يدعونهم إلى نصرتهم، ويحرضونهم على حرب رسول الله ﷺ(١٧٦)، فاستجاب لهم جماعة من قبائل كنانة، وأهل

---

(١٧٣) د. مونتجمري وات: محمد في مكة، ص٢٠٥.

(١٧٤) الواقدي: المغازي، ج١، ص ص١٢٣، ١٢٩، ١٨١، وابن عبدالبر: الدرر، ص١٤٧، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج٣، ص١٨٩، ود. محمد أحمد حسب الله: في السيرة النبوية، ص١٢٦، ط١، لم يذكر مكان الطبع، القاهرة، ٢٠٠٥م.

(١٧٥) الواقدي: المغازي، ج١ ص ١٩٩، وابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٤٩، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٥٠٠، والصالحي: سبل الهدى، ج٤، ص٢٧١.

(١٧٦) الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٠١، وابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٦١، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص ص٥٠٠، ٥٠١، وابن كثير: البداية، ج٤، ص ص١١، ١٢.

تهامة، والأحابيش الذين وصل عددهم إلى ألفين(١٧٧) من إجمالي جيش قريش البالغ ثلاثة آلاف(١٧٨).

وفي شوال (سنة ٣هـ/ ٦٢٥م)، خرجت قريش إلى المدينة بحدّها وجدّها، وحديدها، وأحابيشها، ومن تابعها من كنانة، وأهل تهامة، بكامل عدتهم، وأسلحتهم، حتى نزلوا بالقرب من جبل أحد(١٧٩)، وكان بعض أشراف قريش- حين أرادوا الخروج - أخرجوا معهم بعض نسائهم لبث الحماس في قلوبهم، وتثبيت أقدامهم، ليستميتوا في الدفاع عن أعراضهم، وكذلك فعل الأحابيش، فقد خرج النعمان وجابر ابنا مسك الذنب بأمهما الدّغنية، وخرج سفيان بن عويف بامرأته قتيلة بنت عمرو بن هلال(١٨٠)، وخرج غراب بن سفيان بن عوف بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة، إحدى نساء بني عبدالحارث بن عبد مناة(١٨١).

ولما علم رسول الله ﷺ بقريش خرج إليهم في أصحابه، فلما التقى الجمعان، كان أول من لقي المسلمين أبو عامر

---

(١٧٧) السيوطي: لباب النقول، ص١٣٢، وسعيد الأفغاني: أسواق العرب، ص١٤٠.

(١٧٨) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٧، وابن عبدالبر: الدرر، ص١٥٣، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج٣، ص١٩٢، وابن الأثير: الكامل، ج٢، ص١٤٩.

(١٧٩) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص ص٦١، ٦٢، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٥٠١، وابن كثير: البداية، ج٤، ص١٢.

(١٨٠) الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٠٣.

(١٨١) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٦٢، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٥٠٢.

الفاسق في الأحابيش(١٨٢) وعبدان أهل مكة، فقاتلهم قتالاً شديدًا، ثم تراموا بالحجارة(١٨٣)، ثم حميت المعركة واشتد الوطيس، وأخذت نساء قريش، والأحابيش يشجعون مقاتليهم، ويحمسونهم على القتال، تحميسًا شديدًا، يقول أبو دجانة عن دور عمرة بنت الحارث في تحميس قومها: "إنّي لأنظر يومئذ إلى امرأة تقذف النّاس وتحوشهم(١٨٤) حوشًا منكرًا، فرفعت عليها السّيف وما أحسبها إلاّ رجلاً. قال: وأكره أن أضرب بسيف رسول اللّه ﷺ امرأة"(١٨٥).

كذلك حرض أبو سفيان حملة اللواء من بنى عبدالدار على الصمود، إلاّ أن ذلك لم يغن عنهم شيئًا، إذ قتل المسلمون كل من حاول حمله منهم - أو من غيرهم(١٨٦) - فبقي صريعًا، وانهزمت قريش، وأحابيشها، وولّوا الأدبار لا يلوون على شيء، تاركين نساءهم ما دون أخذهن من قليل ولا كثير،

---

(١٨٢) استدل بعض الباحثين بهذا الخبر على أن أبا عامر الفاسق رأس الأحابيش في غزوة أحد، لامانس: الأحابيش، ص٢١، ود. جواد على: المفصل، ج٤، ص٣٤، وهذا وهْم بطبيعة الحال، لما ذكرته المصادر الأصلية من أن الحليس بن علقمة كان سيد الأحابيش ورئيسهم يوم أحد، ابن عبدربه: العقد الفريد، ج٣، ص٢٩٣، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص١٨٨، وأبو الفداء: المختصر، ج١، ص١٢٦.

(١٨٣) الطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٥١٢، والأصفهاني: الأغاني، ج١٧، ص١٨٥، وابن الأثير: الكامل، ج٢، ص١٤٩، والسمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٨٥.

(١٨٤) تحوشهم: أي تأهبهم وتشجعهم، ابن منظور: لسان العرب، م٢، ص١٠٥٠، مادة: (ح و ش).

(١٨٥) الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٥٩.

(١٨٦) حمله من الأحابيش شريح بن قارظ فقتل، الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٢٨.

وكادت الهزيمة تحدق بهم(١٨٧)، لولا حدوث أمرين غيرا مصير المعركة.

أولهما: مخالفة الرماة لأوامر رسول الله ﷺ وتركهم أماكنهم، حين رأوا جنود قريش ينهزمون(١٨٨).

ثانيهما: أن عمرة بنت الحارث أخذت لواء قريش - الصريع - فرفعته لهم فاجتمعوا إليه(١٨٩)، وفيها يقول: حسان بن ثابت.

إذا عضل سيقت إلينا كأنّها
جداية(١٩٠) شرك(١٩١) معلمات الحواجب
أقمنا لهم طعنًا مبيرًا منكّلا
وحزناهم بالضّرب من كلّ جانب

---

(١٨٧) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٧٧، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٥١٣، وابن الجوزي: المنتظم، ج٣، ص١٦٥، والصالحي: سبل الهدى، ج٤، ص ص٢٨٨، ٢٨٩.

(١٨٨) ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٥٧، والنسائي: سنن النسائي الكبرى، ج٥، ص١٨٩، الحديث رقم ٨٦٣٥، تحقيق د. عبدالغفار سليمان وآخر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٩٩١م، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج٣، ص١٩٦، وابن حجر: فتح الباري، ج٤، ص٤٠٥.

(١٨٩) الطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٥١٣، والأصفهاني: الأغاني، ج١٥، ص١٨٦، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص١٨٨، وابن عبدالبر: الدرر، ص١٥٧.

(١٩٠) الجَداية والجداية جميعًا: الذكر والأنثى من أولاد الظّباء إذا بلغ ستة أشهر أو سبَعة وعدا وتشدّد وخص بعضهم به الذكر منها، ابن منظور: لسان العرب، م١، ص٥٧٣، مادة: (ج د ا).

(١٩١) شرك: (بكسر أوله) جبل بالحجاز، وقيل: ماء وراء جبل القنان لبني منقذ بن أعيى من أسد، ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٣٣٧.

فلولا لواء الحارثيّة أصبحوا
يباعون في الأسواق بيع الجلائب(١٩٢)

وعندما رأى فرسان قريش الفارين من أرض المعركة بقيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل خلاء الجبل وقلة أهله، عادوا مرة أخرى، والتفوا حول المسلمين، وطوقوهم، وتحول ميزان القوى لصالح المشركين الذين خلصوا إلى رسول الله ﷺ، حيث رماه ابن قميئة الحارثي أحد بني عبدالحارث بن عبد مناة، بحجر فكسر أنفه ورباعيته، وشجّه في وجهه فأثقله(١٩٣)، وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ، فقتله ابن قميئة، وهو يظنه رسول الله ﷺ(١٩٤).

ولما نال ابن قميئة من رسول الله ﷺ ما نال رجع إلى قريش، وهو يقول: " قتلت محمدًا، وصرخ الشيطان - أزب العقبة - يومئذ بأبعد صوت: ألا إن محمدًا قد قتل"(١٩٥) فحصل بذلك بهتة عظيمة في المسلمين، حيث فرت فرقة منهم إلى المدينة(١٩٦)، وتوقفت أخرى عن القتال، وحمست

---

(١٩٢) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٧٩.

(١٩٣) الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٣٢، والإمام مسلم: صحيح مسلم، ج٣، ص١٢٢٤، الحديث رقم١٦٠٠، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٥١٩، وابن كثير: البداية، ج٤، ص٢٤، والسمهودي: وفاء الوفا، ج١، ص٢٨٩.

(١٩٤) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٧٣، وابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٦٩٣، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج٣، ص١٩٧.

(١٩٥) ابن كثير: البداية، ج٤، ص٣٢.

(١٩٦) أشار القرآن الكريم إلى هذه الفئة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

الثالثة على القتال عن حوزة الإسلام، حتى يموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ الذي بقي في قلة قليلة من أصحابه تدافع عنه(١٩٧).

وعلى الرغم من ذلك، فلم تنجح محاولات المشركين العديدة في تحقيق النصر الكامل على المسلمين، وقد تأكد لديهم حياة النبي ﷺ فكفوا أيديهم، وانصرفوا عائدين إلى ديارهم، مكتفين بما حققوه من مكاسب(١٩٨)، وقبل رحيلهم قام رجال ونساء من قريش بالتمثيل بقتلى المسلمين في أرض المعركة، الأمر الذي كان محل استنكار من سيد الأحابيش، إذ يذكر الرواة(١٩٩) أن الحليس بن علقمة مر بأبي سفيان بن حرب "وهو يضرب في شدق حمزة بن عبدالمطلب بزج الرمح، ويقول: ذق عقق، فقال الحليس: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحمًا؟، فقال: ويحك اكتمها عني، فإنها كانت زلة". وهذا يدل على أنه لم يكن من الأعراف السائدة التمثيل بالقتلى، وأن مثل هذا العمل كان عارًا يستنكرونه، ويسألون بعضهم كتمانه إذا حدث منهم.

---

(١٩٧) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص ص٩٣، ٩٤، ود. محمد أحمد: في السيرة النبوية، ص١٥٠.

(١٩٨) ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص ص٦٥، ٦٦، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص ٥٢٦، والصالحي: سبل الهدى، ج٤، ص ص٣٢٤، ٣٢٥، والمباركفوري: الرحيق المختوم، ص٢٧٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٩٩٩م، ود. محمد أحمد: في السيرة النبوية، ص ص١٥٤، ١٥٥.

(١٩٩) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص ٩٣، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٥٢٧، والأصفهاني: الأغاني، ج١٥، ص١٩٤، وابن الأثير: الكامل، ج٢، ص١٦٠، والصالحي: سبل الهدى، ج٤، ص٣٢١.

ومما سبق يتضح لنا مدى قوة الأحابيش، ودورهم المؤثر الذي كان من بين أبرز الأسباب التي غيرت مجرى المعركة من هزيمة مؤكدة إلى تحقيق بعض المكاسب - بالنسبة لقريش - كان في مقدمتها، إصابة النبي ﷺ ببعض الإصابات، فضلاً عن إشاعة خبر مقتله، وعلى الرغم من مساندة الأحابيش لقريش إلا أنهم لم يقروا أعمالهم التي تترفع عنها العادات والأعراف السائدة، ظهر ذلك جليًا في استنكار سيد الأحابيش التمثيل بجسد سيد الشهداء سيدنا حمزة بن عبدالمطلب.

ولما كانت غزوة أحد قد انتهت دون أن تحقق قريش وأحابيشها نصرًا كاملاً على المسلمين - فيبيدوهم ويستأصلوا خضراءهم - عمل بعض أعضاء حلف الأحابيش على توطيد علاقاتهم مع قريش - تبعًا للأحلاف القديمة - بالنيل من أصحاب النبي ﷺ، والأخذ بنصيبهم في شن الغارة على المسلمين، والنيل من هذا الدين الجديد(٢٠٠).

ففي صفر (سنة ٤هـ/ ٦٢٥م) بعث النبي ﷺ سرية من عشرة أفراد عينًا له على قريش، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت(٢٠١)، وقيل: بل قدم على رسول الله ﷺ، وفد من قبيلتي عضل والقارة، فذكروا لرسول الله ﷺ أن الإسلام قد انتشر بينهم،

---

(٢٠٠) د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج١، ص٩٦.

(٢٠١) ابن شهاب: المغازي، ص٦٧، والبخاري: الجامع الصحيح، ج٣، ص١٢٤٦، الحديث رقم ٤٠٨٦، وأبو داود: سنن أبي داود، ج٢، ص٥٧، الحديث رقم٢٦٦٠، تحقيق: محمد محيي الدين، دار الفكر، (د.ت)، والنسائي: سنن النسائي، ج٥، ص٢٦١، الحديث رقم ٨٨٣٩، والذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص١٤٩، تحقيق د. عمر عبدالسلام، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤م.

وأنهم يطلبون منه أن يرسل إليهم نفرًا من أصحابه، يقرئونهم القرآن، ويعلمونهم شرائع الإسلام، وأحكام الدين(٢٠٢).

فبعث النبي ﷺ، عشرة من أصحابه – وقيل غير ذلك – فساروا مع القوم، حتى إذا أتوا على ماء لهذيل، يقال له الرجيع، استنصروا عليهم بني لحيان من هذيل، فخرج منهم نحو مئة رام في أيديهم السيوف، فلما رآهم أصحاب رسول الله ﷺ قد أحاطوا بهم، أخذوا أسيافهم ليقاتلوهم، "فقالوا لهم: انزلوا فأعطوا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق ألاّ نقتل منكم أحدًا"(٢٠٣)، "ولكنّا نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة"(٢٠٤).

وإزاء هذا العرض انقسم أصحاب رسول الله ﷺ إلى فريقين: الأول: منهم رفض أن يستسلم، وينزل في ذمة المشركين، فقد"قال عاصم بن ثابت أمير السّريّة: أمّا أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمّة كافر، اللّهمّ أخبر عنّا نبيّك. فرموهم بالنّبل، فقتلوا عاصمًا في سبعة"(٢٠٥)، والذي رغبت

---

(٢٠٢) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص١٦٩، وابن خياط: تاريخ خليفة، ص٧٤، وابن الأثير: الكامل، ج٢، ص١٦٧، والكتبي: عيون التواريخ، ج١، ص١٧٩.

(٢٠٣) البخاري: الجامع الصحيح، ج٣، ص١٢٤٦، الحديث رقم٤٠٨٦، وأبو داود: سنن أبي داود، ج٢، ص٥٧، الحديث رقم٢٦٦٠، والنسائي: سنن النسائي، ج٥، ص٢٦١، الحديث رقم ٨٨٣٩.

(٢٠٤) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص١٧٠، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص ص٥٣٨، ٥٣٩، وابن كثير: البداية، ج٤، ص٦٤.

(٢٠٥) البخاري: الجامع الصحيح، ج٣، ص١٢٤٦، الحديث رقم ٤٠٨٦، وأبو داود: سنن أبي داود، ج٢، ص٥٧، الحديث رقم ٢٦٦٠، والنسائي: سنن النسائي، ج٥، ص٢٦١، الحديث رقم ٨٨٣٩، والصالحي: سبل الهدى، ج٦ ص٦٤.

بنو لحيان في أخذ رأسه ليبيعوها من سلافة بنت سعد، وكانت نذرت حين أصاب ابناها يوم أحد لئن أمكنها الله منه لتشربن في قحفه(٢٠٦) الخمر، وجعلت لمن يأتي برأسه مئة من الإبل، فبعث الله الدبر - قيل: النحل، وقيل: الزنابير - فحالت بينهم وبين عاصم، فلما جاء الليل، بعث الله سيلاً فاحتمله فذهب به، فلم يصلوا إليه(٢٠٧).

وأما الفريق الثاني: الثلاثة الباقون، فقد رغبوا في الحياة - لعلهم يجدون فرصة يتخلصون بها من هؤلاء القوم - فنزلوا على العهد والأمان، "فلمّا استمكنوا منهم حلّوا أوتار قسيّهم فربطوهم بها"(٢٠٨)، وخرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، فلما كانوا بمر الظهران، انتزع أحدهم يده من القيد، وأخذ سيفه ليقاتل به القوم، فتأخروا عنه، ورموه بالحجارة حتى قتلوه، وقدموا مكة باثنين من أصحاب رسول الله - ﷺ - هما خبيب بن عديّ، وزيد بن الدّثّة، فباعوهما لقريش(٢٠٩).

فأما خبيب بن عديّ، فقد ابتاعه حجير بن أبي إهاب، بثمانين مثقالاً(٢١٠) من الذهب، وقيل: اشتراه بخمسين

---

(٢٠٦) القحف: العظم فوق الدماغ من الجمجمة، والجميع: القحفة والأقحاف، الرازي: مختار الصحاح، ص٥٢٢، مادة: (ق ح ف).

(٢٠٧) الواقدي: المغازي، ج١، ص٣٥٦، وابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٧٦، وابن كثير: البداية، ج٤، ص٦٧، وابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٤٣٨.

(٢٠٨) البخاري: الجامع الصحيح، ج٣، ص١٢٤٦، الحديث رقم ٤٠٨٦.

(٢٠٩) ابن شهاب: المغازي، ص٦٨، وابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص١٧١، وابن خياط: تاريخ خليفة، ص٧٥، وابن الأثير: الكامل، ج٢، ص١٦٧.

(٢١٠) المثقال: وزن مقداره درهم وثلاثة أسباع الدرهم، مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، ص٨٦، مادة: (ث ق ل)، طبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، مصر، ١٩٩٠م.

فريضة، لابن أخيه عقبة بن الحارث، ليقتله بأبيه، وكان قتل يوم بدر(٢١١)، وقيل: اشترت خبيبًا ابنةُ الحارث بمئة من الإبل(٢١٢)، في حينٍ اشترى صفوان بن أمّيّة، زيد بن الدّثنّة، بخمسين فريضةً فقتله بأبيه، ويقال: إنّه شرك فيه أناس من قريش(٢١٣).

وقد حزن النبي ﷺ، حزنًا شديدًا، لما أصاب أصحابه من غدر بني لحيان بهم، وظل لمدة شهر يدعو عليهم في صلاته، وهذا الأمر معروف أشارت إليه كتب التراث الإسلامي(٢١٤).

ويتضح من هذا العرض لسرية الرجيع أن الأحابيش من عضل والقارة، قد نجحوا في تحقيق مكاسب كبيرة بالنسبة لهم، إذ قتلوا بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وأسروا آخرين باعوهم لأهل مكة بمبالغ كبيرة من المال، فضلاً عن توطيد علاقاتهم السياسية - تبعًا للأحلاف القديمة - مع قريش بمساعدة بعض رجالهم في أخذ ثأر آبائهم، وإخوانهم، الذين قتلوا في غزوة بدر.

---

(٢١١) الواقدي: المغازي، ج١، ص٣٥٧، وابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص١٧١، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٥٣٩.

(٢١٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص٣٥٧، وقيل: باعوهما - خبيبًا وعديًا - من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة، ابن كثير: البداية، ج٤، ص٦٧.

(٢١٣) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص١٧٢، وابن كثير: البداية، ج٤، ص٦٧، والصالحي: سبل الهدى، ج٦، ص٦٧.

(٢١٤) البخاري: الجامع الصحيح، ج٣، ص١٢٤٩، الحديث رقم ٤٠٩٥، والإمام مسلم: صحيح مسلم، ج١، ص٤٧٠، الحديث رقم ٦٧٩، وابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٢٣، ج٧، ص٤٤٥.

وفي محاولة أخرى للنيل من أصحاب النبي ﷺ أخذ الحارث بن أبي ضرار - سيد بني المصطلق - في جمع الجموع، وشراء الخيل والسلاح، والتجهز للمسير إلى رسول الله ﷺ وحربه(٢١٥) - أيًا كان وقت حدوث هذا الأمر، فيما بين سنتي ٥ و٦هـ (٦٢٦ و٦٢٧م) - فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث إليه بريدة بن الحصيب الأسلمى، يعلم له خبره، فأتاه وتظاهر أنه يريد مساعدته، فسر الحارث بذلك، ورجع بريدة إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبره، وما يبت له وقومه(٢١٦).

فلما تأكد رسول الله ﷺ من الخبر، ندب الناس، وأسرع في الخروج إليهم، حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع - بناحية قديد- وكان عامة من جمعهم الحارث من العرب، قد تفرقوا عنه، حين سمعوا بمسير رسول الله ﷺ إليهم(٢١٧)، فجعل الحارث يقول: "أتانا ما لا قبل لنا به"(٢١٨)، وخافوا خوفًا شديدًا(٢١٩).

---

(٢١٥) الواقدي: المغازي، ج١، ص٤٠٤، والبلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٣٤١، والذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص١٧١.

(٢١٦) الطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٦٠٤، وابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص١٢٣، والعصامي: سمط النجوم، ج٢، ص١٧٥، ود. محمد أحمد: في السيرة، ص١٨١.

(٢١٧) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٢٩٠، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٦٠٤، والكتبي: عيون التواريخ، ج١، ص٢٢٨.

(٢١٨) الواقدي: المغازي، ج١، ص٤٠٨، والذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص١٧٣، والصالحي: سبل الهدى، ج٤، ص٤٨٨.

(٢١٩) ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٨٨، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج٣، ص٢٥٧.

وقبل أن يبدأهم النبي ﷺ بقتال أمر عمر بن الخطاب أن يدعوهم إلى الإسلام، فيعصموا به دماءهم وأموالهم، ففعل. فأبوا، فترامـوا بالنبل ساعة، ثم أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجوم عليهم، فحملوا عليهم حملة رجل واحد، فكان النصر، وهزم الله المشركين، وقتل عشرة منهم(٢٢٠)، وسبا رسول الله ﷺ نساءهم وأبناءهم وأموالهم(٢٢١)، فكانت الإبل ألفي بعير، وخمسة آلاف شاة، وكان في السبي مئتا أهل بيت منهم جويرية بنت الحارث(٢٢٢)، مما هو مذكور تفصيلاً في كتب السيرة، ثم عاد النبي ﷺ إلى المدينة(٢٢٣)، وقد قضى على عضو مهم من أعضاء حلف الأحابيش، الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر.

بيد أن تلك الغزوة لم تكن هي آخر عدوان للأحابيش على المسلمين، والوقوف إلى جانب قريش، حيث خرجوا معها في شوال (سنة ٥هـ/ ٦٢٧م) في غزوة الأحزاب لحرب المسلمين، مما جعل أصحاب رسول الله ﷺ، أثناء عملهم في حفر الخندق يدعون عليهم، ويرتجزون بقولهم:

---

(٢٢٠) ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٨٨، والبلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٣٤١، والذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص١٧٠، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج٣، ص٢٥٧.

(٢٢١) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢ ص٢٩٠، والذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص١٧١، والعصامي: سمط النجوم، ج٢، ص١٧٥.

(٢٢٢) الواقدي: المغازي، ج١، ص٤١٠، وابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص١٢٤، والكتبي: عيون التواريخ، ج١، ص٢٢٨، والطهطاوي: نهاية الإيجاز، ج٢، ص ص١٣٧، ١٣٨.

(٢٢٣) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٢٩٦، وابن عبدالبر: الدرر، ص٢٠٢، والصالحي: سبل الهدى، ج٤، ص٥٠٠.

والْعَنْ إلهي عضلاً والقارة
هم كلفونا نقل الحجارة(٢٢٤)

وعلى الرغم من كثرة عدد المقاتلة من قريش والأحابيش – أربعة آلاف – فضلاً عمّن انضم إليهم من القبائل الأخرى حتى صار عددهم عشرة آلاف، إلا أنهم لم يحققوا نصرًا على المسلمين، فقد أرسل الله عليهم ريحًا وجنودًا لم يروها، لا تقر لهم قدرًا، ولا نارًا، ولا بناءً، فعادوا إلى ديارهم خائبين، ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** ﴾(٢٢٥).

وكما شارك الأحابيش قريشًا في حروبها ضد رسول الله ﷺ، شاركوها في الدفاع عن مكة، ففي العام السادس من الهجرة، هوت أفئدة المسلمين إلى زيارة بيت الله الحرام، بعد أن حالت قريش بين المسلمين وبين دخولهم مكة لأكثر من ستة أعوام(٢٢٦)، وزاد من شوقهم ما كان رسول الله ﷺ يحدث به من أنه رأى في المنام أنه دخل مكة، وطاف بالبيت، وأخذ مفتاح الكعبة، ففرح أصحابه فرحًا شديدًا، فأمرهم النبي ﷺ بالتجهز للعمرة، واستنفر ﷺ من حوله من

---

(٢٢٤) ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٤٥٦، والعصامي: سمط النجوم، ج٢، ص١٨٢.

(٢٢٥) سورة الأحزاب: الآية ٢٥.

(٢٢٦) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ص٢٩٤، ٢٩٥، طبعة مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م، ود. محمد أحمد: في السيرة، ص٢٢١.

الأعراب، وأهل البوادي، ليخرجوا معه، وهو يخشى أن تمنعه قريش(٢٢٧).

فلما أبطأ الأعراب على رسول الله ﷺ خرج في ذي القعدة (سنة ٦هـ/ ٦٢٨م) في ألف وأربعمئة، أو ألف وخمسمئة من المهاجرين والأنصار(٢٢٨)، معهم أسلحتهم، خوفًا من قريش أن تتعرض لهم، وساقوا معهم الهدي، قد قلدوها، وأشعروها(٢٢٩)، كما أحرم ﷺ وأصحابه بالعمرة من ذي الحليفة، "ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرًا لهذا البيت ومعظمًا له"(٢٣٠). إلا أنه قد حدث ما كان يتوقعه رسول الله ﷺ من قريش، فقد جمعوا له الأحابيش، واستعانوا بحلفائهم، واجتمعوا على صده عن المسجد الحرام، ومنعه من دخول مكة بشتى السبل، وخرجت مقدمتهم لذلك(٢٣١)، وما أن وصلت هذه الأخبار إلى النبي ﷺ حتى عمل على تجنب اللقاء مع قريش، فسلك بأصحابه طريقًا شديد الوعورة - لكي لا يمر على معسكر قريش ومقدمتهم -

---

(٢٢٧) الواقدي: المغازي، ج٢، ص٥٧٢، والصالحي: سبل الهدى، ج٥، ص٥٥، والطهطاوي: نهاية الإيجاز، ج٢، ص ص١٤٣، ١٤٤.

(٢٢٨) البخاري: الجامع الصحيح، ج٣، ص ص١٢٦٧، ١٢٦٨ الحديث رقم ٤١٥١، ورقم ٤١٥٢.

(٢٢٩) أشعر البدنة: أعلمها، وهو أن يشق جلدها أو يطعنها في أسنمتها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه، وقيل: طعن في سنامها الأيمن حتى يظهر الدم، ويعرف أنها هدي، ابن منظور: لسان العرب، م٤، ص٢٢٧٦، مادة: (ش ع ر).

(٢٣٠) ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص ص١٣٥، ١٣٦، وابن حبيب: المحبر، ص١١٥.

(٢٣١) ابن عبدالبر: الدرر، ص٢٠٤، والصالحي: سبل الهدى، ج٥، ص٦٠.

انتهى به إلى الحديبية، حيث أمر النبي ﷺ بضرب معسكره فيها حيث بركت ناقته(٢٣٢).

ولما اطمأن النبي ﷺ في الحديبية، أرادت قريش أن تستطلع حال المسلمين، وأن توفد إليهم من يحاول صدهم عن دخول مكة دون قتال، فأرسلت إلى النبي ﷺ بعدد من رجالها، ومن رؤساء القبائل المجاورة لمكة، والأحابيش، وقدرت أن النبي ﷺ قد يسيء معاملة هؤلاء الرسل، فيُحفِظهم ذلك للدفاع عن مكة، والوقوف إلى جانب قريش ضده، ولكن الأمر كان على عكس ما قدرته قريش(٢٣٣).

وعلى كل حال فقد كان أول من فكرت قريش في إرساله إلى النبي ﷺ، بديل بن ورقاء الخزاعيّ، في جماعة من قومه - وكانت خزاعة من خاصته، وأصحاب سره - فما إن جلس إلى النبي ﷺ، حتى شرح له الحالة التي ترك قريشًا عليها، وكيف أنها استنفرت له الأحابيش ومن أطاعهم من العرب، وأنهم "يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تبيد خضراؤهم"(٢٣٤)، فقال النبي ﷺ: "إنّا لم نجئ لقتال أحد، ولكنّا جئنا معتمرين، وإنّ قريشًا قد نهكتهم الحرب، وأضرّت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدّةً، ويخلّوا بيني وبين النّاس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه النّاس فعلوا، وإلاّ

---

(٢٣٢) ابن شهاب: المغازي، ص ص٥٠، ٥١، والواقدي: المغازي، ج٢، ص٥٧٩، وابن عبدالبر: الدرر، ص٢٠٥، والخزاعي: تخريج الدلالات، ص ص٤٣٦، ٤٣٧.

(٢٣٣) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ص٢٩٧، ٢٩٨، ود. أحمد الشريف: مكة، ص٤٦٥، ود. محمد أحمد: في السيرة، ص٢٢٤.

(٢٣٤) الصالحي: سبل الهدى، ج٥، ص٧١.

فقد جمّوا، وإن هم أبوا فوالّذي نفسي بيده، لأقاتلنّهم على أمري هذا حتّى تنفرد سالفتى(٢٣٥)، ولينفذنّ اللّه أمره"(٢٣٦).

فوعى بديل مقالة رسول الله ﷺ، وعاد إلى قريش، فأخبرهم أن النبي ﷺ لم يأت لحرب ولا لقتال، وإنما جاء زائرًا للبيت معظمًا له، فقالوا: "وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فواللّه لا يدخلها علينا عنوةً أبدًا، ولا تحدّث بذلك عنّا العرب"(٢٣٧).

ثم بعثت قريش - بعد ذلك - بعدد من الرسل كان منهم الحليس بن علقمة - سيد الأحابيش - فلما رآه النبي ﷺ، قال: "إنّ هذا من قوم يتألّهون، فابعثوا الهدي في وجهه حتّى يراه"(٢٣٨)، وفي الصحيح: "هذا فلان، وهو من قوم يعظّمون البدن فابعثوها له. فبعثت له، واستقبله النّاس يلبّون، فلمّا رأى ذلك قال: سبحان اللّه ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت"(٢٣٩).

---

(٢٣٥) السّالفة: ناحية مقدّم العنق من لدن معلّق القرط إلى قَلْت الترقوة، الرازي: مختار الصحاح، ص٣١٠، مادة: (س ل ف).

(٢٣٦) الواقدي: المغازي، ج٢، ص٥٩٣، والبخاري: الجامع الصحيح، ج٢، ص٨٣٤، الحديث رقم ٢٧٣١، ورقم ٢٧٣٢، وابن حجر: فتح الباري، ج٥، ص٣٨٨.

(٢٣٧) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٣١١، والسهيلي: الروض الأنف، ج٤، ص٢٦.

(٢٣٨) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٣١٢، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٦٢٨، والسهيلي: الروض الأنف، ج٤، ص٢٦، وابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٢٠٢.

(٢٣٩) ابن شهاب: المغازي، ص٥٤، والبخاري: الجامع الصحيح، ج٢، ص ص٨٣٥، ٨٣٦، الحديث رقم ٢٧٣١، ورقم ٢٧٣٢، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج٣، ص٢٩٣، وابن حجر: فتح الباري، ج٥، ص٣٨٩.

ورجع إلى قريش قبل أن يصل إلى النبي ﷺ، إعظامًا لما رآه، فأخبرهم به، فقالوا له: "اجلس فإنّما أنت أعرابيّ لا علم لك"(٢٤٠) "كل ما رأيت من محمد مكيدة"(٢٤١)، فغضب عند ذلك الحليس، وقال: "يا معشر قريش، واللّه ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أن تصدّوا عن بيت اللّه من جاءه معظّمًا له، والّذي نفس الحليس بيده، لتخلّنّ بين محمّد وبين ما جاء له، أو لأنفرّن(٢٤٢) بالأحابيش نفرة رجل واحد"(٢٤٣)، فخشيت قريش عاقبة غضب الحليس، فعملوا على استرضائه، وطلبوا إليه أن ينظرهم حتى يفكروا في أمرهم(٢٤٤)، وقالوا له: "كفّ عنّا يا حليس حتّى نأخذ لأنفسنا ما نرضى"(٢٤٥).

ويتضح لنا من سفارة الحليس إلى رسول الله ﷺ عدة أمور:

---

(٢٤٠) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٣١٢، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٦٢٨، وابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٢٠٢.

(٢٤١) الواقدي: المغازي، ج٢، ص٦٠٠، والصالحي: سبل الهدى، ج٥، ص٧٦.

(٢٤٢) النّفر: التّفرّق، ابن منظور: لسان العرب، م٦، ص٤٤٩٧، مادة: (ن ف ر).

(٢٤٣) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٣١٢، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٦٢٨، وابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٢٠٢.

(٢٤٤) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص٢٩٨، والمباركفوري: الرحيق المختوم، ص٣٤٠.

(٢٤٥) الواقدي: المغازي، ج٢، ص٦٠٠، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٦٢٨، وابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٢٠٢، والصالحي: سبل الهدى، ج٥، ص٧٦.

أولاً: أن الأحابيش كانوا حلفاء لقريش، ولم يكون عبيدًا لهم، واتخاذ هذا الموقف من الحليس يدل على أن بعض الأحابيش كانت لديهم بعض العادات الجاهلية كالمروءة، والشجاعة والكرم.

ثانيًا: "أنّ كثيرًا من المشركين كانوا يعظّمون حرمات الإحرام والحرم، وينكرون على من يصدّ عن ذلك تمسّكًا منهم ببقايا من دين إبراهيم عليه السّلام"(٢٤٦)، وأن التحالف الذي كان بين قريش والأحابيش لم يكن من أجل منع وصد من جاء إلى بيت الله الحرام معظمًا له.

ثالثًا: أن الأحابيش كانوا قوة لا يستهان بها، ولذلك عندما هدد الحليس بانسحابهم من مكة، عملت قريش على استرضائه.

رابعًا: بيان حكمة النبي ﷺ في التعامل مع رسل قريش كل بما يؤثر فيه، فاستطاع أن يحولهم من أعداء يقاتلونه، إلى أنصار يدفعون عنه وعن أصحابه، ولا أدل على ذلك من أن النبي ﷺ عندما طالت المحادثات بينه وبين قريش، ففكر في أن رسل قريش ربما لم يكن لديهم ما يقنعون به قريشًا بالرأي الذي يريدونه، فبعث بخراش بن أميّة الخزاعيّ إلى قريش على بعير له يقال له الثعلب، ليبلغ عنه أشرافهم بما جاء له، فعقر عكرمة بن أبي جهل البعير، وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما لقي(٢٤٧).

---

(٢٤٦) ابن حجر: فتح الباري، ج٥، ص٤٠٣.

(٢٤٧) الواقدي: المغازي، ج٢، ص٦٠٠، وابن كثير: البداية، ج٤، ص١٦٩، والخزاعي: تخريج الدلالات، ص١٩١، والصالحي: سبل الهدى، ج٥، ص٧٧.

وعلى كل حال، فقد انتهى أمر السفارات بين النبي ﷺ، وكفار قريش إلى توقيع الطرفين على ما عرف بصلح الحديبية، والذي أدى إلى انهيار تحالف قريش مع القبائل العربية ضد الإسلام، وترك لهذه القبائل حرية تحديد مواقفها من الإسلام عداءً وسلمًا(٢٤٨)، إذ كان من ضمن شروطه: "أنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، وأنه من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها فعل"(٢٤٩)، فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن في عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدها(٢٥٠).

وبعد التوقيع على شروط الصلح، عاد كل قوم إلى ديارهم، وقد أمن بعضهم بعضًا، إلا أنّ غدر بني بكر حلفاء قريش، بخزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، ومساعدة قريش لهم؛ أعاد الحرب مرة ثانية بين الفريقين بعد نحو من اثنين وعشرين شهرًا.

وفي رمضان (سنة ٨هـ/ ٦٢٩م) سار النبي ﷺ في عشرة آلاف من أصحابه لفتح مكة، والتي ما إن علم زعماؤها به، حتى خرج إليه جلهم فأعلنوا إسلامهم(٢٥١)، إلا قلة قليلة أبت

---

(٢٤٨) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٣٤٤، ود. محمد أحمد: في السيرة، ص ص٢٣٣، ٢٣٤.

(٢٤٩) ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص١٤٠.

(٢٥٠) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٣١٨، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٦٣٥، وابن كثير: البداية، ج٤، ص١٧٠، والصالحي: سبل الهدى، ج٥، ص٨٦.

(٢٥١) ابن شهاب: المغازي، ص ص٨٦، ٨٩، والبخاري: الجامع الصحيح، ج٣، ص١٢٩٤، الحديث رقم ٤٢٨٠، واليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ص٥٨، ٥٩، وابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٥٩٧.

إلا المقاومة، فجمعوا ناسًا من بني بكر، والأحابيش، لمنع المسلمين من دخول مكة(٢٥٢).

وحرصًا من النبي ﷺ على ألا تراق الدماء بمكة، ومراعاة لحرمتها، فقد أمر قواده بألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وأن يتفرقوا في مداخل مكة، حتى يضيعوا على قريش فرصة القتال(٢٥٣). وقد نجحت خطة النبي ﷺ، فدخل مكة دون قتال يذكر، إلا مناوشات يسيرة حدثت بين القوة الإسلامية التي دخلت مكة من أسفلها، بقيادة خالد بن الوليد وبين من استنصرت بهم قريش من بني بكر، وناس من هذيل، ومن الأحابيش الّذين كان يقودهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، انتهت بقتل اثني عشر رجلاً من المشركين - وقيل أكثر من ذلك - وهزيمتهم أقبح الانهزام، وتفرقهم في رؤوس الجبال(٢٥٤).

ومما سبق يتضح لنا أن الأحابيش لم يترددوا لحظة في الدفاع عن مكة، والوقوف إلى جانب قريش التي قادت المقاومة ضد الإسلام والمسلمين، حتى دخلوا في دين الله أفواجًا عقب فتح مكة.

---

(٢٥٢) الواقدي: المغازي، ج٢، ص٨٢٣، وابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٤٠٧، والصالحي: سبل الهدى، ج٥، ص٣٤٤.

(٢٥٣) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص ص٤٠٦، ٤٠٧، والبخاري: الجامع الصحيح، ج٣، ص١٢٩٤، الحديث رقم ٤٢٨٠، والطبري: تاريخ الرسل، ج٣، ص٥٦، وابن كثير: البداية، ج٤، ص٢٩٤.

(٢٥٤) ابن شهاب: المغازي، ص٩٠، والواقدي: المغازي، ج٢، ص٨٢٥، وابن سعد: الطبقات، ج٢، ص١٩٨، وابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص ص٦٠٣، ٦٠٤، والصالحي: سبل الهدى، ج٥، ص ص٣٣٤، ٣٤٨.

ثانيًا: سياسة النبي ﷺ تجاه الأحابيش

فإذا ما انتقلنا إلى بعض الجوانب الأخرى المتعلقة بسياسة النبي ﷺ في إضعاف قوة الأحابيش، فنجد أنه كان يدرك تمامًا مدى قوة الأحابيش - التي تعتز بها قريش - ولذلك عمل ﷺ على فلّ هذه القوة، والتخلص منها، عن طريق القوة تارة، وعن طريق السياسة والمسالمة تارة أخرى.

أ - سياسة المسالمة:

فقد استمال النبي ﷺ إلى جانبه قبيلة خزاعة - والتي ينتمي إليها أحياء من الأحابيش - فكانوا كما يذكر الرواة: "عيبة(٢٥٥) نصح لرسول الله ﷺ مسلمها ومشركها، لا يخفون عنه شيئًا كان بمكة"(٢٥٦)، ولا تهامة(٢٥٧)، فكانوا ينصحون له، ويخذلون عنه، وينقلون إليه الأخبار(٢٥٨)، فلما كان صلح الحديبية (سنة ٦هـ/ ٦٢٨م) دخلت خزاعة - كما سبق - صراحة في عقد النبي محمد ﷺ وعهده(٢٥٩)، مما أضعف قوة قريش الحربية إلى حد كبير.

---

(٢٥٥) عيبة الرجل: أي موضع سره على المثل، ابن منظور: لسان العرب، م٤، ص٣١٨٤، مادة: (ع ي ب).

(٢٥٦) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٣١٢، وابن كثير: البداية، ج٤، ص١٦٨.

(٢٥٧) ابن شهاب: المغازي، ص٥٢، والطبري: تاريخ الرسل، ج٢، ص٦٢٥، والصالحي: سبل الهدى، ج٧، ص٧١.

(٢٥٨) الواقدي: المغازي، ج٢، ص٤٤٤، وابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص١٠٢، وابن عبدالبر: الدرر، ص١٦٧، وابن كثير: البداية، ج٤، ص٥٠.

(٢٥٩) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٣١٨، وابن سعد: الطبقات، ج٢، ص١٤٠.

كذلك كان الإصهار إلى الأحابيش، والمنّ عليهم من بين الأساليب التي استخدمها النبي ﷺ في الفلّ من قوتهم وكسر شوكتهم، فعندما وقعت جويرية بنت الحارث - سيد بني المصطلق - في الأسر، وصارت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها على نفسها، وذهبت إلى النبي ﷺ، تستعين به على كتابتها - وعرف النبي ﷺ مكانتها، ومنزلتها في قومها - عرض عليها أن يتزوجها، وأن يقضى عنها كتابتها، فقبلت، وخرج الخبر إلى الناس، فأطلقوا سراح ما بأيدهم من الأسرى(٢٦٠).

يضاف إلى ما سبق إظهار النبي ﷺ للأحابيش شيئًا من دلائل نبوته ﷺ، فقد جاء في رواية - تحدثت عن زواج النبي ﷺ من أم المؤمنين جويرية - أن النبي ﷺ لما انصرف من غزوة المريسيع، دفع جويرية لرجل من الأنصار، وأمره بالاحتفاظ بها وديعة، وقدم أبوها - وكان قد فر من أرض المعركة - بفدائها، فلما كان بالعقيق، نظر إلى الإبل التي جاء بها للفداء، فأعجبه منها بعيران، فغيبهما في شعب من شعاب العقيق، ثم قدم على النبي ﷺ بسائر الإبل، فقال: "يا محمد أصبتم ابنتي، وهذا فداؤها"، فقال النبي ﷺ: "فأين البعيران اللّذان غيّبت بالعقيق في شعب كذا وكذا؟ فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأنّك رسول اللّه صلّى اللّه عليك، فواللّه ما اطّلع على ذلك إلا اللّه تعالى"(٢٦١).

---

(٢٦٠) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٣٤١، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج٣، ص١١٣، وابن كثير: البداية، ج٤، ص ص١٦٠، ١٦١.

(٢٦١) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص ص٢٩٥، ٢٩٦، والصالحي: سبل الهدى، ج٤، ص ص٥٠٠، ٥٠١.

ومهما يكن من شيء فقد أسلم سائر بني المصطلق بإسلام سيدهم(٢٦٢)، وإصهار النبي ﷺ إليه، ومنِّ المسلمين على قومه. وبهذه السياسة الحكيمة، أوهن النبي ﷺ حلف الأحابيش، إذ ضمن ولاء بني المصطلق له، وحرمان قريش من مساعدتهم وعونهم، بل إن كثيرًا من بني المصطلق أصبحوا جنودًا مخلصين للإسلام، يدافعون عنه، ويقاتلون تحت رايته(٢٦٣).

وفي صلح الحديبية (سنة ٦هـ/ ٦٢٨م) كان لأمر النبي ﷺ أصحابه بحسن استقبال الحليس بن علقمة - سيد الأحابيش - بإظهار رغبتهم في السلم، وتعظيم حرمات الله - كما سبق - أثر كبير في التأثير في الرجل، واستمالته لصالح المسلمين، والدفاع عن حقهم في زيارة البيت الحرام، بل تهديد قريش بالانسحاب من مكة، والتخلي عنها إذا ما أصرت على موقفها، حين قال: "والّذي نفس الحليس بيده لتخلّنّ بين محمّد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد"(٢٦٤) - كما سبقت الإشارة - ولا أدل على نجاح سياسة النبي ﷺ في استقطاب الأحابيش من حمايتهم

---

(٢٦٢) ابن عبدالبر: الدرر، ص٢٠١، وابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص١٢٧، والطهطاوي: نهاية الإيجاز، ج٢، ص ص١٤٢، ١٤٣.

(٢٦٣) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٢٩٦، والزبيري: نسب قريش، ص٢٣٥، وابن خياط: الطبقات، ص ص١٧٩، ١٨٣، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، والطهطاوي: نهاية الإيجاز، ج٢، ص ص١٤٢، ١٤٣.

(٢٦٤) الواقدي: المغازي، ج٢، ص٦٠٠، وابن سيد الناس: عيون الأثر، ج٢، ص١٥٢، والذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص٢٤٧.

لخراش بن أميّة الخزاعيّ - رسوله ﷺ إلى قريش - ودفاعهم عنه(٢٦٥).

وعقب فتح مكة (سنة ٨هـ/ ٦٢٩م) أشار ابن حبيب - في صدر حديثه عن يوم الغميصاء، قبل قتل بني جذيمة - إلى أن "رسول الله ﷺ وجه خالد بن الوليد إلى الأحابيش وهم الهون بن خزيمة، والحيا من خزاعة، وبنو مالك بن كنانة، وهم بأسفل مكة"، ثم لم يشر إلى ما فعله خالد بهم(٢٦٦). مما يجعلنا أمام احتمالات عدة، هل دخلوا في الإسلام، فلم يتعرض لهم خالد؟، أم أنهم انضموا إلى بني جذيمة، فأصابهم ما أصابهم؟، أم لا هذا ولا ذاك، ولكنهم تفرقوا في أغوار تهامة؟. ويبدو لي أن الاحتمال الأول أقرب إلى الصواب، وذلك لما يأتي:

أولاً: لأن النبي ﷺ بعث خالدًا، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعيًا، ولم يبعثه مقاتلاً، كما أنه لم يقاتل بني جذيمة إلا بعد أن "دعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون صبأنا، صبأنا"(٢٦٧)، فأشار عليه بعض أصحاب النبي ﷺ بقتالهم(٢٦٨).

ثانيًا: يضاف إلى ما سبق أن المصادر - التي رجعت إليها - لم تشر إلى أن خالدًا أنزل بهم ما أنزله ببني جذيمة.

---

(٢٦٥) ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص١٣٩، وابن كثير: البداية، ج٤، ص١٦٩، والخزاعي: تخريج الدلالات، ص١٩١.

(٢٦٦) ابن حبيب: المنمق، ص ص٢١١، ٢١٢، ٢١٦، ٢١٧.

(١٦٧) البخاري: الجامع الصحيح، ج٣، ص١٣١٠، الحديث ٤٣٣٩.

(١٦٨) الواقدي: المغازي، ج٣، ص٨٧٥، وابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص ص٤٢٨، ٤٣٠، والطبري: تاريخ الرسل، ج٣، ص ص٦٦، ٦٨.

ثالثًا: لم يأت لهم ذكر في الوفود التي قدمت على النبي ﷺ بعد فتح مكة تعلن الدخول في الإسلام.

رابعًا: لم ترد عن الأحابيش - بعد فتح مكة - روايات تاريخية تتحدث عنهم بصفتهم قوة عسكرية(٢٦٩).

ب - سياسة القوة:

أما عن سياسة القوة التي اتبعها النبي ﷺ لفلّ قوة الأحابيش، وإضعافها قدر المستطاع، فتتمثل في الغزوات، والسرايا التي سيرها النبي ﷺ إليهم.

ففي أول غزوة خرج فيها النبي ﷺ بنفسه، وهي غزوة ودان، في صفر (سنة ٢هـ/ ٦٢٣م) صالح سيد بني ضمرة على قومه - وضمرة من كنانة - على ألا يغزوهم، ولا يغزوه، ولا يكثروا عليه جمعًا، ولا يعينوا عليه(٢٧٠). كما خرج ﷺ إلى بني المصطلق، - كما سبق - حين جمعوا له الجموع.

ولما أخطأه ﷺ ما أراد من أخذ بني لحيان على حين غرّة - وكانوا قد سمعوا بمسيره ﷺ فهربوا، وتحصنوا في رؤوس الجبال - بعث سراياه في كل ناحية إظهارًا لقوته أمام قريش(٢٧١). ومنها سرية بقيادة عمر بن الخطاب إلى القارة، فاعتصموا منه في الجبال، فنهض إليهم بمن معه وجعل

---

(٢٦٩) ذكّر عبدُالله بن صفوان أميرَ المؤمنين معاويةَ بن أبي سفيان بهم وبحلفهم، وطلب إليه صلتهم. الزبيري: نسب قريش، ص٣٨٩.

(٢٧٠) ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٧، وابن خياط: تاريخ خليفة، ص٥٦، وابن عبدالبر: الدرر، ص١٠٣، وابن الجوزي: المنتظم، ج٣، ص٨٩.

(٢٧١) ابن حبيب: المحبر، ص١١٤، والذهبي: تاريخ الإسلام، ج١، ص١٥٩، والعصامي: سمط النجوم، ج٢، ص٢٠٠.

يرميهم بالحجارة(٢٧٢)، ثم عاد إلى رسول الله ﷺ ولم يلق كيدًا، وكذلك بعث النبي ﷺ بشير بن سويد الجهني(٢٧٣) إلى بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، فاعتصموا منه في غيضة، فأحرقهم، فلامه رسول الله ﷺ(٢٧٤)، ثم عاد ﷺ إلى المدينة بعد يوم أو يومين، وقد أظهر شيئًا من قوته أمام تلك القبائل، التي تقيم بمكة وفي نواحيها(٢٧٥).

---

(٢٧٢) ابن حبيب: المحبر، ص ص١١٩، ١٢٠.

(٢٧٣) بشير بن سويد الجهني، ذكره ابن خياط في غزوة بني لحيان، ولم أجد من ترجم له - فيما رجعت إليه من المصادر - وربما كان بشير بن عقربة الجهنى، ويقال: الكناني، يكنى بأبي اليمان، نزل فلسطين وتوفي بها، ابن خياط: تاريخ خليفة، ص٧٨، وابن الأثير: أسد الغابة، ج١، ص٣٣، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠م.

(٢٧٤) ابن خياط: تاريخ خليفة، ص٧٨.

(٢٧٥) ابن هشام: السيرة النبوية، م٢، ص٢٨٠، وابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج٣، ص٢٧٦، والكتبي: عيون التواريخ، ج١، ص٢٢٤.

خاتمة:

من خلال العرض السابق نستطيع أن نختم الدراسة بالتأكيد على أن الأحابيش لم يكونوا من الأحباش، وإنما كانوا قبائل عربية، تحالف بعضها مع بعض، فسموا بالأحابيش للحلف، وأنهم كانوا شديدي التحمس لوثنيتهم، فلم يفارقوها إلى يهودية، أو نصرانية، حتى منّ الله عليهم بالدخول في الإسلام، أو ماتوا على ما كانوا عليه.

كذلك تبين أن الأحابيش حلفاء قريش كانوا أحرارًا، لم يخضعوا للرق فلم يكونوا عبيدًا لقريش، ولا لغيرها، وأنهم - كسائر القبائل - كانت لهم أرض تجمعهم، وسيد يتولى أمورهم، ويدير شئونهم، ولذا كانت قريش تنزلهم منها منزلة الحليف من الحليف، والند من الند، فكانوا بذلك أصحاب مكانة رفيعة لديهم، ينكحون إليهم وينكحونهم، ويجيزون جوارهم، ويحترمونه، ويوفدونهم في الأمور العظام التي تتعلق بمستقبلهم، ومكانتهم، كما حدث في صلح الحديبية، ومن جانبهم كان الأحابيش يستنكرون على قريش تصرفاتها التي تتعارض مع العادات والأعراف السائدة، ولا أدل على ذلك من موقف الحليس بن علقمة في غزوة أحد، وصلح الحديبية.

أما عن موقف الأحابيش من الدعوة الإسلامية، فلم يختلف كثيرًا عن موقف قريش، فإذا كان بعضهم قد سارع إلى الدخول في الإسلام، فإن كثيرًا منهم تربصوا به الدوائر، فخرجوا مع قريش في غزوتي أحد والخندق، وشاركوها في صد رسول الله ﷺ عن دخول البيت الحرام. وعلى الرغم من ذلك فإنهم لم يمثلوا سوى فرقة في جيش قريش - كسائر

القبائل الأخرى - كما أن قريشًا لم تعتمد عليهم بالكلية في حماية تجارتها، وآية ذلك خلو بعض القوافل منهم.

وإذا كان الأحابيش - في مشاركتهم لقريش في حروبها - قد حققوا بعض المكاسب - في نظرهم - كإصابة رسول الله ﷺ، وإشاعة مقتله، وإنقاذ قريش من هزيمة محققة في غزوة أحد، فإنهم بمفردهم استطاعوا القضاء على سرية من سرايا رسول الله ﷺ بأكملها يوم الرجيع، بأن قتلوا بعض أفرادها، وباعوا آخرين لقريش، فحققوا بذلك مكاسب سياسية واقتصادية، وإن كان الأمر لا يدعو للفخر، ولا سيما أنهم ستة نفر أو عشرة تضافرت عليهم بعض بطون الأحابيش غدرًا وخسة.

فإذا ما انتقلنا إلى سياسة رسول الله ﷺ في إضعاف شوكة الأحابيش، أو الحد من قوتهم على الأقل، فنجد أنها كانت تسير في اتجاهين: أولهما: تميز بالقوة، كما حدث مع بني المصطلق، والقارة، وبني الحارث. وثانيهما: تميز باللين، وحسن المعاملة، والإصهار إليهم، والمنّ على بعضهم بغير فداء، مما كان له أثر كبير في تحولهم من الشرك إلى الإسلام، بل مناصرة كثير منهم للإسلام وهم على وثنيتهم. وكان فتح مكة والقضاء على زعامة قريش للوثنية قاصمة الظهر للأحابيش، فلم نسمع لهم بعده حسًا ولا همسًا.

وبعد فغاية ما أرجو من الله سبحانه وتعالى، أن يكون هذا البحث لبنة في تصحيح المفاهيم الخاطئة التي أثيرت حول هذه الجماعة العربية، جماعة الأحابيش، وأن يكون خالصًا لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير.